دولة الإمارات العربية المتحدة
مركز زايد للتنسيق والمتابعة



سقوط القيصرية وسقوط الشيوعية

قراءة في التاريخ الروسي المعاصر

دكتور جاد محمد طه

سبتمبر 2002



المحتويات:



تقـديم:

يسر مركز زايد للتنسيق والمتابعة أن يضع بين يدي القاريء الكريم هذه الدراسة التي تقدم قراءة في التاريخ الروسي المعاصر، من خلال الحديث عن سقوط كل من القيصرية والشيوعية.

ففي معرض الحديث عن مراحل سقوط القيصرية، تعرض الدراسة للعوامل والظروف التي ساهمت في ذلك السقوط أو رافقته، بدء بالصراع بين النبلاء والأقنان، وسقوط الإقطاعية، ومروراً بالمؤثرات الفكرية التي مهدت لهذا السقوط، والتحولات السياسية والاجتماعية التي شهدتها روسيا قبل الحرب العالمية الأولى، وتطور الأحداث حتى سقوط القيصرية.

كما تتعرض الدراسة بالشرح والتحليل لموضوع الشيوعية في الاتحاد السوفييتي، من لحظة قيام الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ وحتى سقوط الاتحاد السوفييتي، وانعكاس ذلك على الكتلة الشيوعية، ونهاية الحرب الباردة، وفي هذا السياق تبرز الدراسة الأسباب المباشرة لاندلاع الثورة البلشفية، بعد أن منيت روسيا بخسائر فادحة في الحرب العالمية الأولى، وفشلت الحكومة القيصرية المتداعية في تحقيق الانتصار أمام القوات الألمانية.

والدراسة تعرض بشكل موجز للنظرية الماركسية في محاولة لتوضيح الجوانب المختلفة لهذه النظرية التي تعرضت للنقد الشديد، وكانت وراء أكبر ثورتين اشتراكيتين عرفهما العالم في العصر الحديث، وهما الثورة الروسية والثورة الصينية، فضلا عن ثورات أوروبا الشرقية، كما أن الدراسة تتناول ما رافق ذلك الامتداد العالمي للشيوعية من نظريات وأفكار يطرح بعضها استحالة انهيار النظام الشيوعي، مقابل تأكيد البعض الآخر على حتمية ذلك الانهيار.

وتحلل الدراسة أيضاً المفارقات التي ميزت سقوط القيصرية في روسيا، وكذلك ما اتسم به النظام الشيوعي في الاتحاد السوفييتي من تفرد في السلطة أدى إلى

انهياره في بداية التسعينيات، وأبرزت التناقضات الكبيرة التي واجهها الاتحاد السوفييتي الذي عمل على ضمان عمالة كاملة للمجتمع السوفييتي وتوفير ضمانات اجتماعية أساسية، لكنه عجز في نفس الوقت عن استخدام القوة الاشتراكية لتلبية الاحتياجات المتنامية بالنسبة للإسكان، وفي نوعية وكمية المواد الغذائية المطلوبة، وفي تحقيق الخدمات الصحية والتعليم الجيد، وكذا في حل المشكلات الأخرى التي نشأت بالطبع في مجرى تطور المجتمع.

إن مركز زايد للتنسيق والمتابعة يقدم هذه الدراسة إسهاماً منه في إلقاء المزيد من الضوء على المراحل التاريخية التي ميزت التاريخ المعاصر للاتحاد السوفييتي وروسيا، بصورة خلقت توازنا في بعض الأحيان في التاريخ السياسي العالمي وهي تشكل مرجعاً مفيداً يندرج في إطار سلسلة الدراسات التي أعدها المركز حول القضايا التي تهم القارىء.

مركز زايد للتنسيق والمتابعة

مقـــدمة:

إن دراسة عن سقوط القيصرية في روسيا، وسقوط الشيوعية فيها، تعتبر دراسة فريدة في نوعها. لأن الموضوع من الناحية النظرية يعتبر دراسة مركبة عن موضوعين. ولكن رغم اختلاف الظروف في «السقوطين» فإن هناك عوامل كثيرة متشابهة. فأولا فإن الحالة في روسيا في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كانت تدفع إلى الثورة الشعبية. لأن سوء أحوال الفلاحين الأقنان، وتعنت النبلاء - بدعم من القيصرية - في معاملتهم لهؤلاء الأقنان، دفع الفلاحين إلى الثورة. وكذلك فإن سوء الأحوال المعيشية للعمال، دفع هؤلاء إلى المشاركة في الانتفاضات الوطنية . وقد قام الأدباء والشعراء الروس الكبار في التمهيد للثورة بأعمالهم الفكرية والأدبية الخالدة، لأن الثورة لا تكون على الظلم، ولكن على الشعور بالظلم، وكان دور المفكرين هاما في سبيل الإعداد للثورة.

كما شاعت في تلك الفترة النظريات والآراء السياسية في غرب أوروبا، وانتقل تأثيرها إلى روسيا، مما كان له أثره في تشكيل الجماعات والأحزاب السياسية.

وجاءت الحرب العالمية الأولى، والتي منيت فيها روسيا بخسائر فادحة لتشكل السبب المباشر لاندلاع الثورة البلشفية، حيث فشلت الحكومة القيصرية المتداعية في تحقيق انتصارات تذكر أمام القوات الألمانية الظافرة، هذا بالإضافة إلى المجازر البشرية التي قام بها بعض القياصرة ضد انتفاضات الشعب، وكل ذلك أدى إلى نجاح الثورة الشيوعية في الاستيلاء على مقاليد السلطة، وإعدام القيصر وكل أفراد أسرته.

وهكذا قام الاتحاد السوفييتي كأحد الأقطاب الكبرى السياسية في القرن العشرين، وشعر البعض أن هذا الاتحاد القائم على الفكر الشيوعي، والذي نقل مبادءه إلى دول شرق أوروبا والصين وغيرها، سوف يبقى أبد الدهر، ولكن عوامل سقوط وانهيار الاتحاد السوفييتي والشيوعية كانت كامنة منذ البدء، أي أن الكثيرين تنبأوا بسقوط الاتحاد السوفييتي والشيوعية، لأن النظرية الماركسية التي اعتنقها زعماء الاتحاد السوفييتي، وأردوا تطبيقها هي نظرية يوتوبية خيالية من الصعب تطبيقها،

وهكذا ومع مضى السنوات، ودخول الاتحاد السوفييتي الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) ثم ما كان من بداية الحرب الباردة بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية، والمواجهات العسكرية غير المباشرة في كوريا وفيتنام وغيرها. ورصد الاتحاد السوفييتي لمبالغ طائلة للمضي في سباق التسلح مع الولايات المتحدة، هذا بالإضافة إلى المعاونات التي قدمها الاتحاد لبعض الجمهوريات الداخلة فيه، ومسؤولية الاتحاد السوفييتي عن حركات التحرير العالمية، كل ذلك أدى إلى مشكلات مالية واقتصادية خطيرة داخل جمهوريات الاتحاد.

ومما زاد الطين بلة، استمرار الحكم المطلق، فلا يمكن أن يسمى عصر لينين أو ستالين إلا أنه استمرار للحكم الفردي، وما واكب ذلك من البطش بالمعارضين، حتى ذكر أنه في عصر ستالين تم الإجهاز على بضعة ملايين من المعارضين. وهكذا بدأت ثورة جديدة على الظلم. وكتب الأدباء الروس في المنفى مقالات عن سوء الأحوال المعيشية في الاتحاد السوفييتي وسياسة القمع للمعارضين. وهذا كله أدى إلى الشعور بالظلم مرة أخرى أمام استئثار أعضاء الحزب الشيوعي بكل الامتيازات، وحرمان أبناء الشعب من كل شيء.

وأخيرا وكما حدث مع سقوط القيصرية، كان السبب المباشر لسقوط الشيوعية هو الحرب الأفغانية السوفييتية (١٩٧٩-١٩٨٩) لقد كانت الحرب العالمية الأولى سببا مباشرا لسقوط القيصرية، كما أن فشل الاتحاد السوفييتي في حربه في أفغانستان، وخسائره التي شملت قتل نحو ٥٠,٠٠٠ جندي سوفييتي وخسارته لبضعة ملايير من الدولارات كانت سببا في شعور الجميع بالنكبة، ومن ثم كانت البيريسترويكا على يد جورباتشوف، ثم سقوط الاتحاد السوفييتي والشيوعية، وتفتت جمهوريات الاتحاد واستقلال أغلبها، وسقوط الشيوعية في شرق أوروبا، وتحقيق الوحدة الألمانية بعد عودة ألمانيا الشرقية (الشيوعية) إلى حظيرة الأم الألمانية. وهكذا تتشابه ظروف سقوط القيصرية مع سقوط الشيوعية، مع اختلاف في الأهداف والتفصيلات والنتائج.

أولاً: سقوط القيصرية

تمهيد:

من المعروف أن روسيا بلاد مترامية الأطراف، تمتد حدودها في قارتي آسيا وأوروبا، حيث تمتد من التخوم الألمانية إلى حدود الصين، ومن شواطئ المحيط المتجمد الشمالي إلى هضاب إيران وجبال القوقاز. (١)

وفي فترة القرنين الخامس عشر والسادس عشر حدثت تغيرات عميقة في حياة شعوب غرب أوروبا، فقد قامت حركات النهضة الأوروبية والكشوف الجغرافية والإصلاح الديني، كما شاهدت نفس هذه الفترة بداية انهيار النظام الإقطاعي، وبزوغ النظام الرأسمالي، ولكن هذه التغييرات الكبرى كانت بدرجة أقل في روسيا. (٢)

وفي القرنين المذكورين سابقا، حدث تقدم اقتصادي عام في شمال غرب روسيا، وقامت محاولات لتدعيم السلطة المركزية الروسية، والقضاء على النظام الإقطاعي، ولكن الموقف كان مختلفا في بقية أجزاء الدولة الروسية. فالأقاليم الغنية حول الدينبر Denieper، والتي استطاع سكانها الروس ضم شعبين أخوين هما شعب روسيا البيضاء وأوكرانيا، فإن هذا الضم لم يستمر طويلا، لأن الأمراء الإقطاعيين اللتوانيين أمكنهم السيطرة على تلك المناطق، هذا بالإضافة إلى أن أراضي غرب روسيا (جاليسيا) كانت جزء من مملكة بولندا.(٣)

وفي العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر، تمكنت دول غرب أوروبا من إنهاء النظام الإقطاعي، والانتقال إلى النظام الرأسمالي، وكانت إنجلترا خير مثال على ذلك، حيث تعتبر مهد الثورة الصناعية (١٧٥٠ - ١٨٣٠)، والتي أمكنها أن تحقق إنجازات كبرى في عمليات الاختراعات الفنية والنقل والمواصلات والانتقال من اقتصاد الكوخ إلى اقتصاديات المصانع الكبرى. (٤)

كما أن كبار الكتاب الموسوعيين أمثال فولتير وروسو في فرنسا قدموا نقدا مرا للنظام الإقطاعي وتسلط الكنيسة الكاثوليكية . وهذه الأعمال الفكرية غيرت من أفكار

الجماهير في فرنسا وبروسيا والنمسا وغيرها من الدول الأوروبية. ورفع المثقفون شعار «الاتحاد بين الحكام والفلاسفة والعلماء». وهكذا شكلت فترة الستينات والسبعينات والثمانينات من القرن التاسع عشر فترة سيادة العقل، واتحدت فيها الحكومات الأوروبية مع المفكرين والعلماء.

وكان هذا هو الموقف في روسيا أثناء حكم كاترين الثانية (١٧٦٢- ١٧٩٦) فالعلاقات الإنتاجية أصبحت تسير في اتجاه التقدم الرأسمالي على أنقاض النظام الإقطاعي.

الصراع في روسيا بين النبلاء والأقنان

كانت روسيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لا تزال دولة زراعية في الأساس، ولكن الكثير من الفلاحين بل حتى قرى بأكملها تحولت إلى أعمال الصناعة والتجارة، رغم استمرارها جزء من المجتمع الزراعي. فكانت قرى مثل ايفانوف Ivanov وبافلوفو Pavlovo وغيرها بمثابة مدن صناعية حقيقية. كما جاء كبار رجال الصناعة أمثال موروزوفس Morozovs وجراشوفس Grachovs وبجريموفز Bugrimovs جاءوا من طبقة الفلاحين الأغنياء، إلا أنه رويدا رويدا بدأت المشروعات الصناعية تنفصل عن المشروعات الزراعية.

كما ساهمت أقاليم جديدة في مجال التجارة، كوسط وأسفل الفولجا، وشمال القوقاز، وتحددت العلاقات الرأسمالية الجديدة في الصناعة.

وجاء تدعيم النظام الإقطاعي في روسيا على شكل تحويل ملكية عبيد (أقنان) الدولة والقصر الحاكم إلى ملكية أصحاب الأراضي. وفي عهد القيصرة كاترين تم تحويل ملكية ٨٥٠,٠٠٠ عبد من الجنسين إلى ملكية أصحاب الأراضي والإقطاعيات.(٥)

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر، أصبحت الصراعات بين الأقنان والإقطاعيين شديدة، ووصلت قمتها في حرب الفلاحين بقيادة بوجاشوف Pugachov.

وقد بدأت الحرب في الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية الروسية، حيث كان استغلال الأقنان يتم بطريقة عنيفة، وزادت كراهية الفلاحين الأقنان لملاك الأراضي، بسبب قيام الملاك باستخدام العبيد في أعمال المناجم. وقد عاش يمليان بوجاشوف Yemelyan Pugachov حياة تعسة، وقبض عليه عدة مرات، ولكنه استطاع الهرب من السجن. وعقب هروبه من سجن كازان Kazan في مايو ١٧٧٣ ظهر بوجاشوف في قلعة ييك Yaik ، وأعلن نفسه إمبراطورا باسم بطرس الثالث، وأحاط به بعض العبيد.

وقد استطاع بوجاشوف في ٢٧ سبتمبر ١٧٧٣ تنظيم قواته والاستيلاء على قلعة تاتشكيفو Tatishchevo والتي فتحت له الطريق إلى أورنبرج orenburg المركز الإداري للمنطقة، ولكنه لم ينجح في الاستيلاء على المدينة. ولكنه قطع كل اتصالاتها بالمراكز الأخرى. كما نجح بوجاشوف في إقناع الأقنان في ضواحي أورنبرج بالإنضمام إلى الثورة. هذا بالإضافة إلى أن عمال منطقة الأورال انضموا للثورة، وقدموا لبوجاشوف البنادق الموجودة في المصانع، وصنعوا أسلحة جديدة للقوات الثائرة. وقد اتخذ المتمردون شكلا منظما، وتكونت الفرق العسكرية، ووضع الموثوق فيهم من جانب بوجاشوف على رأس هذه الفرق. ومع بداية أكتوبر ١٧٧٣ شكل بوجاشوف رئاسة لجيش العبيد للمحافظة على التنظيم والإمداد.

وخلال شهري نوفمبر وديسمبر، استولت الجموع الثائرة على كل أورنبرج وجوبيرنيا Gubernia وبيرم Perm وسمبرسك Simbrisk وهكذا شكلت حركة الفلاحين تهديدا خطيرا لحكومة القيصر.

وفي ٢٢ مارس ١٧٧٣ بدأت القوات الحكومية (القيصرية) هجومها على قلعة تاتشكيفو حيث كانت تتركز القوات الرئيسية للثوار، وبعد معركة دامت لعدة ساعات تم تدمير أهم قوات بوجاشوف، وسقطت القلعة. وفي نفس الوقت هزم جيش الثوار في أوفا Ufa، وانسحب بوجاشوف بما تبقى من قواته إلى منطقة المناجم في جبال الأورال، حيث بدأ في تنظيم قواته من جديد.

وفي ٦ مايو ١٧٧٤ استولت قوات بوجاشوف على قلعة ماجنيتنايا Magnitnaya، وفي ١٩ مايو استولت على تروانسك Troitsk، ولكن بعد يومين واجه بوجاشوف هزيمة ثقيلة على أيدي القوات الحكومية، ومن ثم اتجه بفلول جيشه إلى الفولجا حيث كان في إمكانه الحصول على معاونات الفلاحين الذين كانوا يعانون من أهوال الحكم الإقطاعي. وهكذا استولى بوجاشوف على أوسا Osa، وإزهفسك Izhevsk، وفي ١٢ يونيو ١٧٧٤ استولى الثوار على كازان Kazan ماعدا قلعتها. ولكن المعركة مع القوات الحكومية حول المدينة انتهت بهزيمة الثوار. وهكذا عبر بوجاشوف ببقية قواته إلى الضفة الغربية للفولجا، وتحول جنوبا في محاولة للوصول إلى دون Don، حيث كان يعتقد بإمكانية تنظيم قوات جديدة لمواجهة القوات القيصرية.

وفي أغسطس ١٧٧٤ كان تحت أيدي بوجاشوف نحو ستين كتيبة من قوات الفلاحين بين نزهني نوفجورود Nizhny Novgorod ودون، وكان بوجاشوف في يوليو من نفس السنة قد استولى على كرموش Kurmysh والاتير Alatyr وساراتوف Saratov وكاميشين Kamyahin لقد أصبحت حركة بوجاشوف حربا شعبية، وكان خصمها الوحيد هو القيصر والنبلاء.

واستمرت قوات الثوار في التقدم ناحية الجنوب، ولكن القوات القيصرية انتصرت عليها في تسارتيزن Tsaritsyn، وهرب بوجاشوف من ميدان المعركة، إلى أن تم أسره وتسليمه إلى السلطات، وانتهى الأمر بإعدامه ومعه مجموعة من مساعديه في موسكو في ١٠ يناير ١٧٧٥. ولكن القلاقل استمرت على أيدي الفلاحين بعض الوقت بعد مقتل بوجاشوف، ولكن أمكن للقوات الحكومية السيطرة على الموقف. وكان سبب فشل ثورات الفلاحين يرجع إلى الانقسام بين الحركات وسوء التنظيم وعدم وضوح البرامج والأهداف.

وفي أول رد فعل للإمبراطورة كاترين الثانية فإنها اتخذت إجراءات عنيفة لتدعيم موقف الحكومة الأوتوقراطية، وبخاصة بالنسبة للسلطات المحلية. وفي عام ١٧٧٥ صدر قانون لتنظيم حكومة الإمبراطورية الروسية، حيث قسمت إلى خمسين قسما إداريا، ووضعت كل السلطات المدنية وقيادة الفرق العسكرية تحت سلطة الحاكم

العام والمدير الإقليمي والممثل المباشر للإمبراطورة.هذا النظام الجديد للحكومة ركز السلطة كلها في يد الإمبراطورة وحكام الأقاليم.

كما تم إقرار مرسوم لإقرار حقوق النبلاء سنة ١٧٨٥، فكان في إمكانهم تشكيل مجالس النبلاء والسيطرة على الأمور. (٦)

وبالإضافة إلى الصراع بين النبلاء والأقنان، فإن روسيا كانت تحكم أجزاء واسعة في أوروبا منها فنلندا التي يسكنها جنس يختلف عن الجنس السلافي، ويعتنق مذهبا دينيا مخالفا للمذهب الذي يعتنقه الروس، فالفنلنديون من الكاثوليك بينما يعتنق الروس المذهب الأرثوذكسي، كذلك كانت روسيا تحكم البولنديين الذين كانوا أيضا من الكاثوليك ولو أنهم ينتمون إلى الجنس السلافي. وكان الفنلنديون والبولنديون يكرهون الحكم الروسي ويحاولون التخلص من تلك العبودية.

وأما في آسيا، فقد تغلغل الروس نحو الجنوب الشرقي من القارة حيث حكموا شعوب القوقاز ومغول التركستان، وامتدت حدودهم حتى أصبحت عند أطراف تركيا وإيران وأفغانستان مما أدخل الرعب في نفوس البريطانيين في الهند - إبان الاستعمار البريطاني - وزاد من حدة الكراهية التي كان الروس والإنجليز يتبادلونها خلال القرن التاسع عشر. (٧)

المؤثرات الفكرية على انتفاضات الأقنان:

كان لأحداث الثورة الفرنسية (١٧٨٩) صداها في روسيا، والكتاب الشهير «رحلة من سان بطرسبرج إلى موسكو».

A journey from St. Petersburg to Moscow تأليف ألكسندر راديشيف Alexander Radishchev والذي صدر سنة ١٧٩٠ كان دعوة للنضال ضد الحكم المطلق ونظام العبودية. وكانت مشاعر المؤلف متعاطفة تماما مع الفلاحين الأقنان، بل إن المؤلف راديشيف تبنى مشروعية ثورة الفلاحين. وقد أدى ذلك إلى ضيق القيصرة كاترين، وحكمت المحكمة الجنائية على راديشيف بالإعدام، كما صادق مجلس الشيوخ على الحكم، ولكن القيصرة خففت الحكم إلى النفي إلى إيلم .Ilim وقد عاد راديشيف من المنفي بعد وفاة كاترين سنة ١٧٩٦.

كما كان للفكر الاجتماعي في روسيا صداه في أوكرانيا، وكان من كبار الكتاب الذين أعطوا بعدا للفكر الاجتماعي الأوكراني الفيلسوف والشاعر جريجوري سكوفورودا .(1794 - 1722) Grigory Skovoroda ولم يكن سكوفورودا ثائرا، ولكنه اهتم كثيرا بعدم استغلال البشر، واتهم تجاوزات السلطات القيصرية، وعدم تطبيق العدالة الاجتماعية، كما تضمنت قصائده ورواياته نقد النظام العبودي ونظام قنية الأرض.

وكان جافريلا ديرزهافن Gavrilla Derzhavin من أكبر الشعراء في العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر، وتضمنت قصائده بعض الأشعار في مدح القيصرة كاترين، ولكنه أيضا وبصراحة انتقد قسوة وتجاوزات طبقة النبلاء الروسية. وكان ديرزهافن واحدا من رواد الواقعية في الشعر الروسي. ولكن الكلاسيكية ظلت الأسلوب الغالب في روسيا حتى نهاية القرن على يد كل من سماروكوف .A Sumarokov لومونسوف M. Lomonosov وترددياكوفسكي .V. Tredyakovsky

وكان المنشأ في الاتجاه الأدبي الحديث هو التركيز على الشكل العاطفي والرومانسية، ولكن مع مضى الوقت ظهرت اتجاهات واقعية في أشعار خراسكوف M. Kheraskov وكابنيست V. Kapnist وذلك في أعمالهما الشجاعة، واعتراضهما على الضغط والقمع المتزايد للعبيد. ومن هذه الأعمال قصيدة العبودية لكابنيست، ورواية دنيس فونفيزين Denis Fonvizin المبكرة (١٧٦٦ - ١٧٦٩) بعنوان البريجادير Brigadier، وكذلك رواية الأبله (١٧٩٢) وكانت تمثل صورا حقيقية للحياة في الإقطاعيات المملوكة للنبلاء في نهاية القرن الثامن عشر، وذلك بالرغم من أن فونفيزن نفسه كان بعيدا عن تجسيد الصراع الفعال ضد النظام العبودي. إلا أن مسألة الصراع الثوري ضد العبودية في شكلها الكلي والجوهري جاءت في أشعار راديشيف وخاصة في قصيدة الحرية (١٧٨٣)، كما وضحت في رائعته الرحلة.

أما المأثورات الشعبية في هذه الفترة، فقد صورت صراع الأقنان ضد النظام الإقطاعي.[٨]

ومع بداية القرن التاسع عشر اهتزت أوروبا لوقوع أحداث ضخمة، فقد وقعت ثورات وطنية تحررية، وكذلك تأثرت أوروبا بأحداث الثورة الفرنسية (١٧٨٩) . ووضع كارل ماركس وصديقه فردريك إنجلز أسس الاشتراكية العلمية. كما أنه في روسيا بزغ موقف جديد معاد للنظام الإقطاعي، وارتبطت الحركة الاجتماعية التحريرية للعبيد بأسماء أمثال راديشيف وبلنسكي Belinsky وهرزن Herzen، وقد حاولت القيصرية الحفاظ على حقوق النبلاء، وحاولت قهر العمليات الثورية. (٩)

كما اتخذت الحكومة القيصرية إجراءات قمعية عنيفة ضد آراء تحرير العبيد والكتابات الأدبية في هذا الشأن بين عامي ١٨٢٦، ١٨٢٨، كما وضعت الرقابة على المطبوعات في هذه المرحلة. وتم اعتقال المفكرين الذين هاجموا الرقابة على المطبوعات، هذا بالإضافة إلى استبعاد الفلسفات اليونانية والرومانية من الكتب، باعتبار أن الفلاسفة اليونان والرومان كانوا من الجمهوريين.

ورغم قمع الكتاب والمفكرين في هذه الفترة، فإن الأدب ازدهر في روسيا، وبلغ الشعر ذروته أكثر من النثر. وكانت روايات ايفان كريلوف Ivan Krylov الخيالية تعد نقدا عظيما لسلوك المجتمع على أيامه. كما كان الشعر السداسي الوزن للالياذه في ترجمة جنديش N. Gnedich والاوديسا في ترجمة زوكوفسكي V. Zhukovsky كان عملا مبهرا. كما اشتهر الأخير بقصائده التراجيدية.

ويعتبر بوشكن (1799 - 1837) Pushkin أكبر شاعر روسي وطني، ومؤسس للأدب الروسي الحديث، واللغة الأدبية الروسية. وقد انعكست حركات تحرير العبيد على أعماله. ولكن الحكومة القيصرية اعتقلت الشاعر، ونفته إلى الجنوب سنة ١٨٢٠، ولكن ذلك أدى إلى ازدياد شعبيته. وكان بوشكن هو الكاتب المفضل لدى القوى الشعبية. وروايته الشعرية Eugen Ongine وقصائده الطويلة مثل:

Ruslan and Ludmila والغجر The Gypsies ومأساة بوريس جودنوف Boris Gudnov ، وأشعاره الغنائية تعد من أفضل الأعمال في الأدب العالمي، وقد عرفت أشعاره بعد طبعها ونشرها في العالم كله.

كما قدر بوشكن أعمال شكسبير وبايرون ووالترسكوت، وامتدح كثيرا الشعر الفرنسي. كما وضع بوشكن أسس الاتجاه النقدي الواقعي في الأدب الروسي. لقد كانت حياة بوشكن قصيرة، وعانى من اضطهاد القيصرية وعنت الحكام، وقتل في مبارزة سنة ١٨٣٧.

ومع نهاية ثلاثينات القرن التاسع عشر وبداية الأربعينات ظهر شاعر مطبوع هو ألكسي كولتسوف Alexie Koltsov الذي نظم عدة قصائد عن حياة الأقنان والتراث الشعبي. (١٠)

سقوط النظام الإقطاعي وتقدم المد الثوري

في ١٩ فبراير ١٨٦١ وقع القيصر الكسندر الثاني على قانون يمنع العبودية، وخروج الأقنان عن التبعية القنية للنبلاء. والواقع فإنه كان للمؤثرات الفكرية والإشعاعات الآتية من أوروبا أثرها في إصدار هذا القانون. ولكن وقبل ظهور القانون، وبينما كانت المسودة لا تزال تحت المناقشة، أعلن القيصر بصراحة بأنه سيفعل ما في وسعه لحماية امتيازات ملاك الأراضي، وأن الإصلاح سيحمى مصالح الملاك السابقين للأقنان، وفي نفس الوقت نقض كل المصالح الحيوية للفلاحين.

وكان إلغاء العبودية يعنى سقوط صلة القنية بين الأقنان والنبلاء، وانتهاء عمليات بيع العبيد، وعدم تدخل النبلاء في الشؤون الخاصة والعائلية للأقنان، وأن يسمح للأقنان بالانغماس في أعمال التجارة والصناعة . والواقع فإن إلغاء التبعية الشخصية للأقنان لصاحب الضيعة كان خطوة هامة إلى الأمام، والتي بدونها لم يكن في الإمكان تحقيق تقدم في هذا الاتجاه، ولكن ومع ذلك كان على الأقنان المحررين دفع قيمة الأراضي التي يزرعونها للملاك، مما كبلهم بالأغلال لفترة طويلة من الزمن.

وفي عام ١٨٦٤ قامت الحكومة القيصرية بإصلاح النظام القضائي، وأصبحت المحاكمات علنية، وسمح للمحامين بإجراءات التقاضي والمرافعات.

كما أن أحوال العمل في المصانع والمناجم، وإقامة خطوط السكك الحديدية، وعمليات البناء كانت قاسية جدا، فالمرتبات كانت قليلة جدا أمام عدد ساعات العمل

التي كانت تمتد من ١٢ - ١٥ ساعة متواصلة. وفي بعض المشروعات كان العمل يستمر إلى ١٨ ساعة يوميا. كما تم استخدام النساء والأطفال بأجور أقل من الرجال. وهكذا لم يكن للعمال حقوق بأي شكل من الأشكال، وكانوا تحت رحمة أصحاب العمل تماما. وبطبيعة الحال كانت الطبقة العاملة في روسيا في تلك الفترة أقل في كل شيء من مثيلتها في دول غرب أوروبا. (١١)

وفي عامي ١٨٦٨ و ١٨٦٩ قام الطلاب بالكثير من القلاقل والمظاهرات في سان بطرسبرج وموسكو. ومع نهاية سبعينات القرن التاسع عشر زادت المواجهات بين القوات القيصرية وبين جموع المتظاهرين، وكانت جامعة سان بطرسبرج مركزا لتلك المظاهرات. وقد لجأت السلطات إلى إعلان الأحكام العرفية، وقامت بالكثير من العمليات القمعية، ولكن ذلك لم يؤد إلى هدوء الأحوال.

وفي صيف عام ١٨٧٩ ظهرت حركة ثورية جديدة هي نارودنايا فوليا Norodnaya Volya بمعنى «عزيمة الشعب» .

وفي أغسطس ١٨٧٩ أصدرت اللجنة التنفيذية لنارودنايا فوليا حكما بالإعدام على القيصر اسكندر الثاني. وكان من زعماء هذا التنظيم الثوري أندريه زيليالوف Andrie Zhelyalov والكسندر ميكالوف Alexander Mikailov ، وصوفيا بروفسكايا Sophia Perovskaya والكسندر كفياتكوفسكي Alexander Kvyatkovsky وغيرهم.

وعند عودة القيصر اسكندر الثاني من القرم في نوفمبر ١٨٧٩ نظم الثوار من جماعة نارودنايا فوليا تفجير خط السكة الحديد خارج موسكو، ولكن فشلت هذه المحاولة. كما فشل تدبير آخر لقتل القيصر في ونتربالاس في سان بطرسبرج قام به ستيبان خالتورين Stepan Khlturin في فبراير ١٨٨٠ بتعليمات من تنظيم نارودنايا فوليا أيضا منذ لم يقتل القيصر في المحاولة الأولى.

وهكذا قامت السلطات بسياسات ديكتاتورية لمواجهة هذه الأعمال ضد القيصرية، واختير الكونت لوريس ميليكوف M. Loris Melikov وكان جنرالا مشهورا إبان الحرب الروسية التركية - اختير كحاكم عام له سلطات مطلقة.

وقد اعتبرت منظمة نارودنايا فوليا سياسة لوريس ميليكوف محاولة للقضاء عليها، وبالتالي بادرت إلى قتل القيصر الكسندر الثاني في أول مارس ١٨٨١. وقد عانت هذه المنظمة من انتقام السلطات القيصرية.

وبعد مقتل القيصر، نشر أعضاء منظمة نارودنايا فوليا الهاربون من الاعتقال خطابا مفتوحا إلى القيصر الجديد الكسندر الثالث وعدوا فيه بإيقاف الإرهاب، إذا ما أعلنت الحكومة العفو العام عن المعتقلين السياسيين، وتشكيل مجلس شعبي منتخب، وإعادة تنظيم الحياة السياسية طبقا لرغبة الشعب.

ولكن منظمة نارودنايا فوليا لم تستطع تدعيم العمل الجماهيري لمساندة هذه المطالب، كما فشلت في الحصول على معاونة الليبراليين في لحظة حرجة، كما أن الطبقة العاملة لم تكن مؤهلة لأي عمل ثوري، هذا بالإضافة إلى تقهقر حركة الفلاحين، ولذلك فإن الحركة الاجتماعية الجديدة التي بدأت بسرعة بعد الحرب الروسية التركية لم تتوصل إلى تحقيق الثورة الشاملة. وهكذا أمكن لحكومة القيصر الجديد القبض على زمام السلطة بيد من حديد، بل وأكثر من ذلك قامت بعمليات للتخلص من رموز الحركة الثورية. وقد بدأ الإمبراطور الجديد ألكسندر الثالث عهده بقتل زعماء منظمة نارودنايا فوليا، فأمر بشنق زيليالوف وصوفيا بروفسكايا وغيرهما.. لقد كان القيصر الجديد يعتنق سياسة الحكم المطلق وأساليب الحكم البوليسي.

وهكذا تم تقييد الحريات، ووضع الرقابة على الصحف والمطبوعات، ومهاجمة مظاهرات طلبة الجامعات، وانتفاضات التجمعات العمالية، مما أدى إلى نكسة في جانب المطالبين بالحريات. وفي هذه المرحلة بدأ الاتجاه المعروف باسم التولستوية Tolstoyism وبدأ ليوتولستوي Leo Tolstoy ينشر أفكاره ضد المقاومة العنيفة وأهمية التوصل إلى الكمال الشخصي الأخلاقي كالسبيل الوحيد للتغلب على سوء الظروف الإنسانية. كما ربط تولستوي دعوته بأهمية عدم إحداث القلاقل، وكذلك عدم ضغط السلطة الحاكمة والكنيسة الرسمية على الشعب.

ومن الخطأ اعتبار مرحلة الثمانينات من القرن التاسع عشر فترة تراجع للحركة الجماهيرية الثورية، فهناك كتاب وصحفيون أدلوا بدلوهم أمثال سالتيكوف شدريم Saltykov Shedrim ، شيلجونوف Shelgunov وغيرهما من بين الديموقراطيين الذين حاربوا بشراسة ضد خطط القضاء على المقاومة الشعبية.

كما أن المظاهرات والقلاقل الطلابية اندلعت في عهد الكسندر الثالث، وخصوصا من عامي ١٨٨٧، ١٨٩٠، مثل القلاقل في جامعة كازان Kazan سنة ١٨٨٧، والتي كان فيها فلاديمير أوليانوف (لينين) طالبا.

وبين عامي ١٨٨١، ١٨٩٠ وقعت ٤٥٠ عملية ثورية قام بها مئات الألوف من العمال، وشكلت مصادمات اشترك فيها ٨٠٠٠ عامل في مصانع النسيج في أركوفو زويفو Orekhovo Zuevo قرب موسكو، وكانت علامة هامة لمقدمات حركة الطبقة العاملة الروسية. كما أن الصدام في مصانع قطن موروزوف Morozov تميز بطبيعته المنظمة، وأهمية دور العمال في مواجهة إدارة المصنع، وضد القوات الحكومية التي تم استدعاؤها للقضاء على هذا الصدام. لقد نفي مئات العمال في مصانع موروزوف إلى سيبريا بدون محاكمات، كما أن مئات آخرين قدموا للمحاكمة، وكانت المحاكم لها نفس الروح الانتقامية، حتى إن بعض الصحف في روسيا ذكرت أن المسألة العمالية بزغت في روسيا. وقد تبع قلاقل موروزوف إجراءات حكومية قمعية ضد الفلاحين أيضا. (١٢)

المؤثرات الفكرية التي مهدت لسقوط القيصرية

تجدر الملاحظة أن الفترة بين خمسينات وسبعينات القرن التاسع عشر كانت فترة ازدهار الأدب القصصي الروسي، فقد كتب الروائي الروسي تورجنيف Turgenev مجموعات كبيرة من الروايات السيكلوجية أهمها رودن Rudin، الآباء والأبناء والأرض العذراء وغيرها، وقد اعتبر تورجنيف مرآة للمشاعر الروسية، كما كان في نفس الوقت على صلة بالحياة الأدبية في غرب أوروبا.

وكان ايفان جونشاروف Ivan Goncharov وهو أحد معاصري تورجنيف أحد كبار الروائيين الروس، ومن أهم رواياته «نفس القصة القديمة» «The Same old Story»

وغيرها. كما أن الروائيين الكبار أمثال ليوتولستوي وفيودور دستوفسكي Fyodor Destoyevsky قدما أعمالها الهامة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وقد ذكر الروائي الفرنسي المعروف أندريه موروا أنه ليس هناك في فن الرواية أفضل من الحرب والسلام War and Peace وأنا كارنينا، والبعث Resurrection من أعمال تولستوي. كما أن قصصه القصيرة، ومسرحياته أمثال قوة الظلام The Power of Darkness والميت الحي The Living Corpse وثمار التعليم The fruits of Education تعد من أفضل المسرحيات العالمية.

لقد كان ليوتولستوي عبقريا كبيرا، وعلى معرفة دقيقة بعلم النفس الإنساني، وجسم في أعماله صورا واقعية للحياة الإنسانية في الريف الروسي، وفي الطبقات العليا في المجتمع في القرن التاسع عشر. وقد أطلق لينين على تولستوي «مرآة الثورة الروسية» Mirror of the Russian Revolution وقد جسدت فلسفة وكتابات تولستوي النواحي القوية والضعيفة لكفاح الفلاحين الروس، وهو قد هاجم الاستغلال الإقطاعي والرأسمالي من جانب الطبقة الحاكمة، ومن جانب الكنيسة أيضا، ورغم ذلك فإنه لم يكن من محبذي الثورة العنيفة وفضل تحقيق التحولات الاجتماعية عن طريق الكمال الأخلاقي، والعدالة الاجتماعية بدون استخدام الأساليب العنيفة.

وهناك الكثيرون من الكتاب المسرحيين الذين تعلموا من تولتسوي كيفية تفسير حقائق النفس البشرية، وتجريم الشرور الاجتماعية والحروب، أمثال أناتول فرانس، ورومان رولان وبرناردشو وقد قدم هؤلاء كل التقدير لتولستوي، واتبعوا مثاله الواقعي في أعمالهم.

كما أن ديستوفسكي نشر في الستينات والسبعينات من القرن التاسع عشر عدة أعمال رائعة كمنزل الموتى The House of The Dead والجريمة والعقاب، والأحمق، والشياطين، والأخوة كرامازوف، وكانت آمال ديستوفسكي معقودة على التوصل إلى تحقيق الكمال الإنساني.

كما أن ميخائيل شردن Mikhail Saltykov Shcherden كان ناقدا أدبيا كبيرا، كما أن أعماله الروائية «قصة مدينة» «The History of a Town»، عائلة جولفلوف The

Golovlov Family ، وآثار برشخوني Poshekhony Antiquitis وغيرها تعد من أروع الأعمال العالمية.

كما أن نيكولاي نكراسوف Nikolai Nekrasov كان ذلك الشاعر المطبوع الذي تغنى بالصبر على الأحزان والشجاعة والقوة، ومن أهم قصائده «من ذا الذي يعيش حياة طيبة في روسيا»؟ «Who lives well in Russia».(١٣)

كما لا يمكن في هذا الإطار أن نغفل الكاتب الروسي الكبير أنطون تشيكوف، فهو واحد من أهم أساتذة النقد الأدبي في روسيا والعالم، وقد أنجز أعماله الكبرى في تسعينات القرن التاسع عشر، وفي الأعوام الأولى من القرن العشرين، ومات مبكرا في سنة ١٩٠٤ وهو في الرابعة والأربعين.

وكان تشكيوف مخلصا للأفكار الإنسانية والعدالة الاجتماعية والحرية، وقد أثرت أعماله بقوة على الأدب والمسرح العالمي. كما أن فلاديمير كورلينكو Vldimir Korlenko والتي تنتمي كتاباته إلى العقد الأخير من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين، كان من جيل الكتاب القدامى، وارتبط في شبابه بمنظمة نارودنايا فوليا، وكان من المشاركين بفاعلية في الحركة الثورية، وهاجم تماما عدم العدالة الاجتماعية.

كما أن مكسيم جوركي Maxim Gorky وهو اسم الشهرة للأديب العالمي ألكسي بيشكوف Alexie Peshksov كان ملتصقا بتولستوي وتشيكوف، ويعتبر جوركي علامة مميزة لفترة من تقدم الآداب الروسية والعالمية. وقد جاء جوركي من أسرة فقيرة، وعانى كثيرا في طفولته وشبابه، وارتحل كثيرا في كل أرجاء روسيا طولا وعرضا، وأحاط بمفردات حياة الشعب الروسي. وقد بدأ جوركي الكتابة في بداية تسعينات القرن التاسع عشر، ونتيجة لعبقريته ومشاعره الصادقة وصلاته العميقة بطبقات الشعب الروسي، قدم شيئا جديدا للأدب العالمي، وكان عمله متصلا بالفترة الثورية الجديدة، وهو كروائي امتدح الإنسان المقاتل، والإنسان العامل، والإنسان الممتلئ بالعزيمة. (١٤)

ولا نستطيع ونحن نتكلم عن العوامل الفكرية التي أدت إلى تطور الشعب الروسي قبل سقوط القيصرية أن نغفل التطور المذهل، وظهور عاصفة الموسيقى الروسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. لقد بزغ الخمسة الكبار في حقل الموسيقى وهم ميلي بالكرييف Mily Balkriev، مودست موسورجسكي Modest Moussorgsky، والكسندر بورودين Alexander Borodin ، ونيكولاي رمسكي كورساكوف Nikolai Rimsky Korsakov، وقيصر كي .Cesare Kui وقد قدم الخمسة الكبار عددا من الأوبرات الشهيرة.. فقد قدم موسورجسكي بعض الأعمال المسرحية الموسيقية مثل بوريس جودونوف Boris Godunov ، خوفانشينا Khovanshchina وقدم كورساكوف بسكوفيتيانكا Pskovityanka والأمير إيجو Prince Lgor وقد عاش رمسكي كورساكوف بعد رحيل الأربعة الكبار الآخرين وقدم عددا من الأعمال مثل أوبرا فانتاستيك pera Fantastique ، وليلة مايو May Night والفتاة الجليدية .Snow Maid

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ظهر الموسيقار الكبير تشايكوفسكي Pyotr Chaikovsky، الذي اقتفى أثر الخمسة الكبار الذين سبقوه زمنيا، وتشايكوفسكي هو سيد العمل الأوبرالي، وأهم أعماله في هذا الصدد يوجين أونجين Eugene Ongine، وملكة البستوي Queen of Spades ، وفي فن البالية قدم بحيرة البجع والجمال النائم وكسارة البندق، وهذه الأعمال أثرت الموسيقى العالمية. كما كان تدخل تشايكوفسكي في الأعمال السيمفونية وموسيقى الحجرة كان هائلا ومشابها لأعمال موزارت وبتهوفن وغيرهما من كبار الموسيقيين العالميين. (١٥)

ازدياد المد الثوري في روسيا في أواخر القرن التاسع عشر

في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر أصبحت روسيا المركز الرئيسي للحركة الثورية العالمية. وكان الإمبراطور الكسندر الثالث قد توفي في عام ١٨٩٤ بعد حكم دام ثلاثة عشر عاما، وخلفه على العرش ابنه Nicholas في نفس العام وكانت فيودورفنا Fyodorovna زوجة نيكولاس تتمتع بشخصية قوية، وكانت طموحة ومتخوفة من فقدان العرش، لأنها لم يكن لها ولد في بداية الأمر، وكذلك لأن ابنها الذي جاء بعد فترة كان يعاني مرضا مستعصيا.

وأدت قسوة نيكولاس الثاني إلى نعته بنيكولاس الدموي، وقد استخدم ليوتولستوي كلمات هرزن Herzen عن نيكولاس الأول في وصف نيكولاس الثاني وأنه «هو جنكيز خان في كلمة واحدة».

وقد جسد نيكولاس رومانوف وزوجته التجسيد النموذجي للديكتاتورية الرجعية.

وفي ربيع ١٨٩٥ ذاع صيت القيصر الدموي الجديد في أنحاء الدولة بموافقته العلنية على قتل العمال أثناء تظاهرهم في ياروسلاف Yaroslav وبعد عام أي في عام ١٨٩٦ ذاع صيته الدموي أكثر عندما تسبب في مقتل الآلاف في خودنسكوي Khodynskoye Poliye أثناء الاحتفال التقليدي بالتتويج في موسكو، فقد احتشد نحو مليون مواطن، ولكن الحكومة لم تتخذ أية خطوات للسيطرة على النظام، وقد انهار المسرح الذي تجمعت عليه أعداد ضخمة، واندفع الكثيرون يطلبون النجاة، مما تسبب في مصرع الآلاف .. وفي نفس الليلة رقص القيصر في احتفال أعده السفير الفرنسي، وكأن شيئا لم يحدث.

وأدت هذه الأحداث إلى تفاقم الأوضاع بين السلطات القيصرية وجماهير الشعب الروسي، واتجاه الشعب الروسي إلى البحث عن أسلوب فعال للقضاء على الحكم المطلق، ووضع نهاية للظلم الاجتماعي. كما أن الأحداث الدولية، أدت إلى مزيد من المشكلات للسلطات القيصرية مما أدى في النهاية إلى سقوط القيصرية. [١٦]

الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٤ – ١٩٠٥)

في مساء يوم ٢٦ يناير ١٩٠٤ هاجم اليابانيون في عملية مفاجئة حامية روسية قرب بورت آرثر، واتبعوا ذلك بمهاجمة السفن الحربية اليابانية للطراد الروسي فارياج Varyag والسفينة الحربية الروسية كوريتس Koreyets والتي كانت في ذلك الوقت في شيمولبو Chemulpo في كوريا، وهكذا بدأت الحرب الروسية اليابانية، حيث عاونت بريطانيا والولايات المتحدة اليابان. وكان من أهداف القيصر نيكولاس استغلال هذه الحرب بانتصاره انتصارا كبيرا يمكنه من إيقاف الحركات الثورية ضده، ولكنها على العكس ساعدت على الإسراع في إيقاعها [١٧] وكانت أطماع اليابان

في الصين قد جعلتها تتحدى روسيا، وتعمل على منعها من التقدم في الشرق الأقصى، وخصوصا في منشوريا وكوريا، لأن تدعيم السيطرة الروسية على منشوريا مع وجود مينائها الحصين فلاديفستك على المحيط الهادي كان يهدد المشروعات التي تعمل اليابان على تحقيقها في الشرق الأقصى، ولاسيما أن مد سكك حديد سيبريا واختراقها لمنشوريا سوف يزيد من نفوذ روسيا في الشرق الأقصى. ولم يكد يمر عام على إتمام سكة حديد سيبريا حتى استعد اليابانيون بكل قواهم لطرد الروس من منشوريا. واستطاعوا أن يطردوا القوات الروسية من حدود كوريا، كما تحطم الأسطول الروسي في مياه الشرق الأقصى.

وقد دلت تلك الهزائم الروسية المتكررة أمام اليابان على أن الدول الأوروبية كانت مخطئة في تقديرها لقوة الروس، واتضح لها في الوقت نفسه خطر القوة اليابانية. وأخيرا وقعت في ديسمبر ١٩٠٥ معاهدة بورتسموث Portsmouth بين روسيا واليابان، تنازلت بموجبها روسيا لليابان عن بورت آرثر وشبه جزيرة لياوتنج Liaotung ، والنصف الجنوبي من جزيرة سخالين Sakhalin واحتلت اليابان كوريا، وجلا الروس من منشوريا التي عادت إلى الصين، وتعهدت روسيا بعدم التدخل في كوريا ومنشوريا.

واعتمادا على تلك المعاهدة، وعلى تعضيد بريطانيا لليابان، استطاعت اليابان أن تتدخل سلميا في كوريا إلى أن ضمتها نهائيا في عام ١٩١٠، وأخذت اليابان منذ هذا الوقت تستغل كوريا اقتصاديا. والواقع فإن الحرب بين اليابانيين والروس لم تكن حربا متكافئة الفرص، إذ كان على الجنود الروس لكي يصلوا إلى ميادين القتال أن يقطعوا خمسة آلاف من الأميال مستخدمين خطا واحدا من السكة الحديد، بينما كان في استطاعة اليابانيين أن يرسلوا إلى الميدان وبسهولة قواتهم الكاملة، من برية وبحرية. (١٨)

الثورة الروسية سنة ١٩٠٥

أدت الحرب الروسية اليابانية إلى كثرة القلاقل في روسيا، وازدياد التجمعات العمالية المعادية للحكومة القيصرية، وقدم رجل دين يدعى جابون Gapon ملتمسا

عن مطالب العمال. واقترح أن يتم ذلك يوم الأحد ٩ يناير ١٩٠٥، ولكن في ٨ يناير كانت السلطات القيصرية قد اتخذت قرارا بإطلاق النار على الجماهير، وعدم السماح للثائرين بالاقتراب من القصر الحاكم. وقام عدد من الكتاب والعلماء بالاتصال بوزراء القيصر وطلب منع المذبحة المخطط لها، ولكن محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح.

وفي ٩ يناير ١٩٠٥ تقدم نحو ١٥٠,٠٠٠ من العمال الروس ومعهم زوجاتهم وأطفالهم، وهم يحملون صور القيصر وشعارات الكنيسة، ولم يتصور العمال أنه سيطلق عليهم النار، لأن شعار «أبانا القيصر» كان لا يزال قويا.. ولكن القوات كانت قد اتخذت مواقعها في مناطق مختلفة من سان بطرسبرج، وخططت للضرب بدون رحمة، وقد قتل وأصيب بضعة آلاف من أفراد الشعب، وتحولت عقيدة «أبانا القيصر» إلى البغض والكراهية للقيصر. وأصبح يوم ٩ يناير ١٩٠٥ يوما خالدا في تاريخ روسيا.

وحدثت تجمعات روسية ضخمة في موسكو، كما وقعت مظاهرات في ريجا Riga وغيرها. كما كانت هناك مظاهرات للفلاحين في الأورال وغيرها. وهكذا بدأت الثورة الروسية الأولى (١٩٠٥-١٩٠٧) وكانت هذه الثورة بالضرورة بورجوازية ديموقراطية، وكانت المطالب المبدئية هي إلغاء نظم الاستعباد، وتغيير العلاقة بين أصحاب الأراضي والفلاحين لتكون أكثر إنسانية. (١٩)

والواقع أن الثورة الروسية سنة ١٩٠٥ لم تكن وليدة عصر نيكولاس (نيقولا الثاني) فقد ورثها فيما ورث من عرش قياصرة الروس، كما ورث لويس السادس عشر عصر الثورة الفرنسية، ولم يكن نيقولا الثاني بالرجل الذي يستطيع أن يقود السفينة وسط الزوابع، فهو مثل لويس السادس عشر اجتمع فيه ضعف الإرادة، إلى جانب الميل إلى العناد وعدم تقدير أهمية الحوادث. وكان يعتقد اعتقادا راسخا في الحكم المطلق، ولذلك اختار وزراءه ممن يوافقونه على هذا المبدأ.

وهكذا ازدادت المعارضة العنيفة للأوتوقراطية الروسية من كل جانب، ولاسيما بعد أن سقطت هيبتها بعد هزيمة روسيا أمام اليابان. ولم يجد القيصر بدا من قبول

نصيحة مستشاريه، فاصدر في أكتوبر ١٩٠٥ بيانا صرح فيه برغبته في أن يمنح الشعب بعض ضمانات للحرية الشخصية تتمثل في برلمان منتخب دوما Duma ووعد بأن يكون لهذا البرلمان الحق في التصديق على التشريعات التي تصدرها الحكومة. وقد قنع الأحرار المعتدلون بهذا التغير الذي طرأ على سياسة القيصر، وقد سمى هؤلاء بالأكتوبريين. ولكن فريقا من متطرفي الأحرار - وكانوا لا يصدقون وعود القيصر - نادوا بوضع دستور رسمي للدولة، وتقويته بإصدار «قانون الحقوق».

على أن زعماء الإصلاح كانت تنقصهم وحدة الرأي، واتحاد الكلمة، مما شجع القيصر على تعديل سياسته نحو الديموقراطية، لاسيما أن الشعب الروسي لم يتكتل حول زعامة حكيمة.. فلما اجتمع مجلس الدوما، وأظهر أعضاؤه شيئا من حرية الرأي، حله القيصر.. ولاقى المجلس الثاني الذي أعقبه نفس المصير، ورأي القيصر أن يصدر مرسوما بتعديل قانون الانتخاب، بحيث سهل ذلك التعديل سيطرة كبار الملاك على الانتخابات. وجاء المجلس الثالث وليد تدخل النبلاء، ومع ذلك انعدمت الثقة بينه وبين الحكومة القيصرية.

وقد كان أعضاء مجلس الدوما ينتمون إلى عدة أحزاب سياسية، كانت كلها تعارض الأوتوقراطية الروسية، ولكنها لم تستطع أن تكون جبهة متحدة قوية ضد الحكومة، فالأكتوبريون كانوا يكتفون بتحقيق ما جاء في بيان أكتوبر سنة ١٩٠٥ الذي أصدره القيصر، وكانوا يهدفون إلى إقامة حكومة على نمط النظام الروسي، الذي يتعاون فيه البرلمان مع الملك.

أما أعضاء الحزب الثاني فهم الديموقراطيون الدستوريون الذين اشتهروا باسم الكادت Cadets، وكانوا ينادون بأن تكون الحكومة مسؤولة أمام مجلس الدوما، وأن يملك القيصر ولا يحكم، وبالإضافة إلى ذلك كان هناك حزبان يساريان : حزب الديموقراطيين الاشتراكيين، وحزب الثوريين الاشتراكيين.

وأما مسألة الأراضي الزراعية، فقد كان لكل حزب من هذه الأحزاب رأي في طريقة توزيعها: فالأكتوبريون كانوا يرغبون في توزيع بعض القطع على صغار

الفلاحين بحيث يمتلك كل فلاح قطعة أرض صغيرة . أما الديموقراطيون الدستوريون فكانوا يطالبون بإلغاء ملكيات المزارع الواسعة، كما طالبوا الحكومة بأن تساعد الفلاح على شراء الأرض من الملاك الكبار، على أن تمده الحكومة بالقرض اللازم الذي يسدده على أقساط طويلة المدى. أما الديموقراطيون الاشتراكيون والثوريون الاشتراكيون فإنهم اتفقوا في المطالبة بمصادرة جميع الأراضي في روسيا فورا، ولكنهم اختلفوا في الطريقة التي توزع بها تلك الأراضي. فالديموقراطيون الاشتراكيون كانوا يرون أن تكون الأراضي كلها ملكا للدولة على أن تؤجرها للفلاحين. أما الثوريون الاشتراكيون فكانوا يعارضون في أن تكون الحكومة هي المالكة للأراضي الزراعية، أو أن تنتمي أي أرض لفلاح بعينه، بل يرون أن يقوم نظام لاستثمار الأرض بواسطة جماعات تعاونية من الفلاحين.

ولكن الثورة التي قامت سنة ١٩٠٥ فشلت لسببين هامين: أولهما أن الجيش الروسي كان مخلصا للقيصر، وثانيهما لاختلاف الأهداف، وتنازع الآراء بين الأحزاب التي قامت تنادى بالإصلاح، مما سهل على الحكومة التغلب عليها جميعا، هذا بالإضافة إلى أن فرنسا وألمانيا كانتا تساعدان القيصر. ففرنسا كانت تخشى أن تفقد حليفا قويا لو خلع القيصر، لذلك قدمت مساعدات مالية كبيرة لتدعيم الأوتوقراطية الروسية. وأما قيصر ألمانيا فكان يريد كسب روسيا إلى جانبه، فقام بتسليم زعماء الثورة الروسية - الذين كانوا قد فروا إلى ألمانيا - لحكومتهم. [٢٠]

وأخيرا هدأت الأحوال في روسيا، وانتصر القيصر على العناصر المتطرفة، وخضع الفلاحون لمصيرهم، وقبع العمال في مصانعهم، وعاد القيصر إلى سياسة الحكم المطلق، وعم الهدوء، ولكنه كان كالهدوء الذي يسبق العاصفة.

التحولات السياسية والاجتماعية في روسيا قبيل الحرب العالمية الأولى

ترجع أصول الثورة الشيوعية إلى النظرية التي دعا إليها كل من كارل ماركس وزميله فردريك إنجلز إلى ما أصبح معروفا باسم «الثورة الشاملة من أجل مجتمع المساواة المطلقة».

وترتكز هذه النظرية الشيوعية على دراسة التطور التاريخي للبشرية على ضوء المادية الديالكتية القائلة بأن تاريخ البشرية يجب أن ينظر إليه من الزاوية الاقتصادية، وأن يدرس على أساس التفسير المادي للتاريخ. فهناك العصور التي ساد فيها الإقطاع، والعصور التي ساد فيها النظام الرأسمالي، وأصبح عصر حكم البروليتاريا (الطبقات الكادحة) قاب قوسين أو أدنى. وكان كارل ماركس أول من فلسف هذه النظرية وعمل على نشرها عندما أصدر البيان الشيوعي وكتابه «رأس المال». وتتبلور هذه النظرية في الدعوة إلى اشتراكية علمية، لا ملكية فيها ولا طبقات، والمساواة فيها مطلقة بين الأفراد، ومن هنا كانت هذه النظرية حربا على الطبقات الأرستقراطية والبرجوازية وكبار الملاك والإقطاعيين، وأصحاب الأعمال، وأصحاب المصانع والشركات المالكة لمؤسسات إنتاجية، على اعتبار أن كل هذا يمثل قوى استغلال للطبقة الكادحة. [٢١]

والفلسفة الماركسية ترى أن المادة هي الأصل في الوجود، وترى أن العالم مادي، وأن هذا العالم غير مسبوق في الوجود إذ المادة أبدية.

ويطلق على الأساس الفلسفي للماركسية «المادية الجدلية» وقد تطور الجدل حديثاً على يد الفيلسوف الألماني هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) حتى أصبح نظرية كاملة. ونظرية هيجل في الجدل تبدأ بنقد المنطق الأرسطي، الذي يعرف باسم «المنطق الشكلي»؛ فأرسطو مثلا يرى أن هذه القضية صحيحة: الإنسان موجود يرفض بالضرورة هذه القضية الإنسان غير موجود. هيجل يرفض المنطق الشكلي على هذا النحو، ويرى أنه يغفل حقيقة أساسية. وهي وجود التناقض في الأشياء والأفكار.. وارتقاء النقيضين في شكل اتحاد يولد نقيضه ليس أمراً قاصراً على الفكر وحده، وإنما يوجد أيضاً في الأشياء المادية.. فبذرة النبات تتضمن الشجرة العالية والشجرة العالية تنسخ البذرة الصغيرة، وهذا المثال يوضح بجلاء الفارق الجوهري بين المنطق الشكلي والمنطق الجدلي.

وقد تتلمذ كارل ماركس على يد هيجل في الجامعات الألمانية إلا أنه انتهى به الأمر إلى رفض مضمون نظرية أستاذه. فبينما كان هيجل يرى أن «الفكرة المطلقة» هي

أصل الوجود - والفكرة المطلقة عند هيجل ترادف فكرة الألوهية - فإن ماركس رأي أن المادة هي الأصل في الوجود. والجدل عند ماركس هو جدل المادة أساساً، فالمادة هي الجدلية في الأساس وليست الفكرة، ومن هنا سميت الماركسية بالمادية الجدلية.

وقوانين الجدل هي التي تحكم حركة المادة ومن ثم تحكم حركة العالم كما قال لينين، والقانون علاقة ضرورية وحتمية بين ظواهر معينة. والقوانين الأساسية للجدل كما جاءت في الكتابات الماركسية بصفة عامة ثلاثة:

١- قانون نفي النفي.

٢- قانون وحدة الأضداد وصراعها.

٣- قانون تحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كيفية.

ويكشف قانون نفي النفي في نظر الماركسيين عن الاتجاه العام للتطور في العالم المادي. إن حلول الجديد محل القديم هو ما تقصده الجدلية بالنفي.. إن الجديد ينفي القديم. ويقول ماركس في هذا الصدد «لا يمكن لأي تطور أن يحدث في أي ميدان إذا لم ينف صور الوجود القديمة» . وتاريخ المجتمعات البشرية يتكون من سلسلة من نفي الجديد للقديم، فإن الإقطاع نفي لنظام العبودية السابق عليه، كذلك فإن الرأسمالية نفي للإقطاع، والاشتراكية نفي للرأسمالية، وإذا كانت الرأسمالية نفيا للإقطاع فإن الاشتراكية على هذا النحو تعد نفياً للنفي.(٢٢) ويقول كارل ماركس في هذا الصدد أيضاً «إن الملكية الخاصة المتولدة عن طريق الإنتاج الرأسمالي هي السلب الأول للملكية الخاصة القائمة على أساس العمل الفردي، ولكن الإنتاج الرأسمالي يولد بقوة القانون الطبيعي الذي لا يتغير بالقوة التي تسلبه أي تنفيه، وهذا سلب السلب (نفي النفي) لا يؤدى إلى عودة الملكية الخاصة، ولكنه يعيدها على أساس التعاون والملكية المشتركة للأرض وأدوات الإنتاج».(٢٣)

ويمكن توضيح المقصود من قانون وحدة الأضداد وصراعها بمثال بسيط: إذا أخذت قطعة من المغناطيس، فستجد أن لها قطباً شمالياً وقطباً جنوبياً، وهذان القطبان متنافران ومتحدان في نفس الوقت، وإذا قسمت قطعة المغناطيس إلى قطع

صغيرة فسيظل في كل قطعة مهما صغرت قطبان متنافران ومتحدان في نفس الوقت.. وهكذا تتحد الأضداد.

وهذا التناقض القائم في الأشياء قائم أيضاً في النظم الاجتماعية، فالنظام الرأسمالي يقوم على وجود النقيضين: الرأسمالي والعامل، هذان النقيضان موجودان في النظام الواحد، بينهما اتحاد وتناقض في آن واحد. والمتناقضات مع وجودها في حيز واحد، إلا أنها بحكم تناقضها تعيش في صراع دائم. ويرى الماركسيون أن تاريخ العلم وتاريخ المجتمعات يثبتان أن صراع الأضداد هو سبب التطور.

إلا أنه إذا كان صراع الأضداد يؤدي دائماً إلى التطور على النحو الذي شاهدناه في القانون السابق، فإن هذا التطور يتخذ شكل تغيرات كمية تنتقل في مرحلة معينة وبصورة مفاجئة إلى تغيرات كيفية.. فالماء يتحول إلى بخار عند درجة حرارة معينة، كذلك هو يتحول إلى جليد في درجة حرارة معينة أخرى، ومعنى ذلك أن الماء في درجة حرارة ٤٠ ثم ٥٠ ثم ٦٠ كانت تطرأ عليه تغيرات كمية، أي تغيرات في الطاقة الداخلية فقط، ولكن الماء يظل ماء بمعنى أنه لا يطرأ عليه تغير نوعي أو كيفي. ولكن عند درجة حرارة ١٠٠ وتحوله إلى بخار يحدث نوع آخر من التغير... تغير كيفي أو نوعي لأن الماء قد أصبح بخاراً.

ويطبق الماركسيون هذا القانون على الحياة الاجتماعية أيضا، فيقولون إن الأنظمة الاجتماعية في تطورها تمر بتغيرات كمية أي تغيرات في الدرجة، وعند مرحلة معينة يحدث تغير جذري شامل أو تغير كيفي. وهذا التغير الكيفي يحدث فجأة وعن طريق الثورة التي تغير النظام الاجتماعي تغييراً كاملا أي تغييراً كيفياً.

أما المادية التاريخية في نظر الماركسية فهي نوع من تطبيق المادية الجدلية على التاريخ الإنساني. فالتاريخ الإنساني في نظرهم ليس وليد الصدفة، وإنما هو يسير وفقاً لقواعد موضوعية تحدد مساره، وهذه القوانين موضوعية بمعنى أنها لا تنشئها إرادة الناس، وإنما هي علاقات موضوعية بين مقدمات ونتائج . ومن القوانين العامة التطبيق القانون الأساسي في المادية التاريخية الذي يقول أن أسلوب المعيشة هو

الذي يحدد أفكار الناس ومعتقداتهم. كذلك منها القانون الذي يقول بالأثر الحاسم لأسلوب الإنتاج في تطور المجتمعات.

وقد طبق ماركس وإنجلز هذه المبادئ الأساسية في المادية التاريخية على تطور المجتمعات البشرية، وانتهى إلى أن المجتمع البدائي كان مجتمعاً شيوعيا ليست فيه ملكية فردية، ولما بدأ الإنسان في استخدام الأدوات المعدنية فإن ذلك أدى إلى تغير أسلوب الإنتاج، وقد أدت نشأة الزراعة إلى وجود الملكيات الفردية ووجود نظام الرق، ليقوم الرقيق بخدمة أصحاب الأراضي.

وقد أدى التطور في وسائل الإنتاج الزراعي والصناعي إلى وجود علاقات إنتاجية جديدة، وبذلك حلت علاقة الإقطاعي بالقن محل علاقة السيد بالعبد في المرحلة السابقة.

ومع قيام الثورة الصناعية، تغيرت علاقات الإنتاج، فانهار النظام الإقطاعي ليحل محله النظام الرأسمالي، ولكن هذا النظام الجديد يحتوي على تناقض أساسي: فبينما ملكية أدوات الإنتاج ملكية فردية، فإن العملية الإنتاجية نفسها عملية جماعية، وهذا التناقض يتلاشى عندما تصبح ملكية وسائل الإنتاج جماعية أيضاً، وهكذا ينهار النظام الرأسمالي ليحل محله النظام الاشتراكي. (٢٤)

ويهتم التحليل الاقتصادي الماركسي أساساً بتحليل النظام الرأسمالي وإظهار القوانين التي تحكم سيره، فالعملية الإنتاجية في النظام الرأسمالي تتم أساساً من أجل تحقيق الربح للمالكين لوسائل الإنتاج أي للرأسماليين. وعلى هذا فإن طرفي العلاقة الإنتاجية في النظام الرأسمالي هما الرأسمالي والعامل، وهذان الطرفان بينهما تناقض أساسي: إن الرأسمالي يريد أن يزيد من أرباحه، وهذه الزيادة لا يمكن أن تتحقق إلا على حساب أجور العمال، والعمال يريدون أن يزيدوا من أجورهم، وهذه الزيادة لا يمكن أن تتحقق إلا بإنقاص ربح الرأسمالي. وهذا التناقض لا حل له إلا باختفاء أحد الجانبين، ولما كان اختفاء الجانب المنتج - العمال - معناه أن تتوقف العملية الإنتاجية، فإن المنطقي أن يختفي طرف العلاقة غير المنتج أي الرأسمالي،

وبذلك لا يبقى سوى العمال، وعندئذ يتحقق النظام الاشتراكي، وهذا التحول لا يتم إلا عن طريق الثورة. وقد رأي ماركس أن القوانين التي تحكم سير النظام الرأسمالي هي:

١- قانون القيمة وفائض القيمة:

إن العمل في النظام الرأسمالي ليس إلا سلعة تباع وتشترى كغيرها من السلع، فإن الرأسمالي يشترى قوة عمل العامل ويعطيه الأجر الذي يكفل له معيشته الضرورية[٢٥]، وفي نفس الوقت يلزم الرأسمالي العامل بالعمل مدة أكثر مما يلزم لمعيشته، فإذا فرض أن العامل يشتغل يومياً ثماني ساعات، فإن الرأسمالي لا يدفع له سوى أجر ست ساعات فقط، وهو الأجر اللازم لمعيشته من وجهة نظر الرأسمالي، ويمثل ما ينتج في الساعتين الأخيرتين الزيادة الرأسمالية التي تذهب إلى جيب الرأسمالي، وهذا هو فائض الإنتاج أو فائض القيمة[٢٦]، وحصول الرأسمالي على هذه الزيادة، أو فائض القيمة وعدم حصول العامل عليها هو الاستغلال الذي تؤدى إليه الرأسمالية بطبيعة تكوينها وسير نظامها.

٢- قانون التراكم الرأسمالي:

لاشك أن الرأسمالي يسعى دائماً إلى زيادة ثروته وما ينتج عن ذلك من تراكم رأسمالي، والرأسماليون يتنافسون بشدة، ويحدث ذلك بالفعل في الحياة الواقعية، إذ تقضى المشروعات الكبيرة على المشروعات الصغيرة، مما يؤدي إلى زيادة التراكمات الرأسمالية لدى المشروعات الكبيرة. ووجود الأزمات وهي ظاهرة ملازمة للنظام الرأسمالي، وما تؤدى إليه من بطالة تحتم الإبقاء على أجور العمال منخفضة نتيجة هذا العرض الزائد لقوة العمل، وانخفاض الأجور يساعد بدوره على زيادة فائض القيمة وبالتالي يؤدي إلى زيادة التراكم الرأسمالي.

٣- قانون الإفقار المطلق:

هذا القانون يقابل القانون السابق ويتناقض معه، لأنه إذا كان القانون السابق يعمل عمله فيجانب الرأسماليين، فهذا القانون يعمل عمله في جانب العمال. ولاشك أنه في الوقت الذي تتراكم فيه ثروات الرأسماليين يزداد بؤس العمال بصفة منتظمة، ويقول

ماركس في بيان هذا القانون إنه «بقدر ما يتراكم رأس المال تزداد حالة العمل سوء... تراكم في البؤس ليقابل التراكم في رؤوس الأموال، فتراكم الثروات في قطب هو في نفس الوقت تراكم في البؤس وآلام العمل والعبودية والجهل في القطب المقابل».

٤- الأزمات:

رأي ماركس أن طبيعة النظام الرأسمالي تؤدي حتما وبالضرورة إلى أن تعتوره أزمات دورية ناجمة عن طبيعة النظام نفسه، وما يحمله من تناقض بين جماعية الإنتاج وفردية التملك، وما يؤدي إليه من حدوث أزمات دورية تهز كيان النظام كله.

وإذا انتقلنا إلى الكلام عن الدولة والثورة في الفكر الماركسي نجد أن الماركسيين يرفضون الفكرة التي تتصور الدولة جهازاً محايداً في المجتمع الإنساني، لأن الدولة - في رأيهم - في المجتمع الطبقي لا تقف موقفاً محايداً، لأنها تعبر عادة عن الطبقة المسيطرة اقتصادياً وتمثل بالتالي مصالحها هي دون غيرها، والدولة في النظام الإقطاعي كانت دولة الإقطاعيين الممثلة لسلطانهم. وكانت تستخدم لقهر الفلاحين وتمكن الإقطاعيين من استغلالهم. كذلك فإن الدولة في النظام الرأسمالي هي دولة البورجوازيين أصحاب رؤوس الأموال، والممثلة لمصالحهم التي تهدف إلى تمكين سيطرتهم على الطبقة العاملة واستغلالها بكل صنوف الاستغلال.

ويرى الماركسيون أن الثورة الاشتراكية ستقوم على يد الطبقة المستغلة في النظام الرأسمالي، وهي طبقة العمال، وعندما يتم النصر للطبقة العاملة فإنها تقيم دولتها.. دولة العمال التي تسحق النظام الرأسمالي ودولته لتقيم النظام الاشتراكي ودولته. ولكن النظام الاشتراكي ليس إلا خطوة لتحقيق المجتمع الشيوعي، وعندئذ يوجد مجتمع بغير طبقات وتذبل فكرة الدولة من تلقاء نفسها [٢٧]. وقد رأي لينين أنه لابد من وجود فترة ديكتاتورية أطلق عليها ديكتاتورية الطبقة العاملة. وذلك قبل تطبيق الاشتراكية. [٢٨]

ودولة ديكتاتورية البروليتاريا مهمتها الأساسية سحق النظام الرأسمالي وإقامة

المجتمع الاشتراكي، إلا أن هذه الدولة ليست خالدة، فما هي سوى خطوة في سبيل تحقيق المجتمع الشيوعي.

هذا عرض موجز بل شديد الإيجاز للنظرية الماركسية، حاولنا فيه على قدر المستطاع توضيح الجوانب المختلفة لهذه النظرية، وقد تعرضت هذه النظرية للنقد الشديد إلا أننا لن نتوسع هنا في هذه النقطة، ويكفي القول هنا إن النظرية الماركسية كانت وراء أكبر ثورتين اشتراكيتين عرفهما العالم في العصر الحديث وهما الثورة الروسية والثورة الصينية. [٢٩] وكانت النظرية ترى أن النظام الرأسمالي الذي سيطر على أوروبا سيقضي على نفسه بنفسه ويسقط، ولكن ليس من العدالة – من وجهة نظر ماركس – أن تنتظر الطبقات الكادحة هذا السقوط الذي قد يتأخر إلى عدة قرون، وإنما يجب الإسراع في «عجلة التاريخ» للوصول إلى «المجتمع الشمولي» عن طريق «الثورة الشاملة» . وما أن يتحقق هذا المجتمع الشمولي، فإنه يتهيأ بالتالي مجتمع تكون فيه الحرية تلقائية واضحة المعالم والحدود، وحرية اجتماعية وليس حرية سياسية.

ولا ينتقد ماركس الدول الرأسمالية بسبب استبداد طبقة بأخرى فقط، بل ينتقدها لأنها تسير على نظام يعطي لبعض مؤسساتها استقلالاً ذاتيا يتنافى مع وحدة المجتمع وشموله، فهو ضد مبدأ فصل السلطات، الذي دأبت تلك الدول الرأسمالية على تقديسه ونادى بنظرية تفويض السلطات، بشكل هرمي ينبع من القاعدة الشعبية، على اعتبار أنها هي التي يجب أن تحكم، ودعا إلى توزيع العمل على أساس «لكل حسب حاجته ومن كل طبقا لمقدرته» .

وطبقا للنظرية، فإن العمال والطبقة الكادحة هم الذين سيتولون الثورة، فيجب – من وجهة نظر الماركسيين – أن تتولى هذه الطبقة سلطات ديكتاتورية تمكنها من النجاح، ومن التوصل إلى تحقيق المجتمع الشمولي.

والواقع أنه قد تعرضت النظرية الماركسية للنقد الشديد، وصدرت العديد من المؤلفات تهاجم وتنتقد هذه النظرية. فتوقعات كارل ماركس لم تكن دقيقة بشأن قيام الثورة الشيوعية في المناطق الصناعية من الدول الرأسمالية في أوروبا الغربية، لأن

النظام الرأسمالي كان في عنفوانه، ولأن التكتلات العمالية كانت مفككة، هذا بالإضافة إلى أن الدول الرأسمالية شعرت بسرعة بخطورة الدعاية الشيوعية، فأقدمت على إصدار العديد من التشريعات العمالية التي قضت على الكثير من شكاوى العمال، وربطت هؤلاء العمال بالفكر القومي، وليس بالفكر العالمي الماركسي، حتى إن الأحزاب الاشتراكية التي كانت ذات قوى جماهيرية في أوروبا الغربية، كانت أقوى من القوى الثورية الشيوعية، نظرا لأن الفكر الاشتراكي كان في بريطانيا وفرنسا وألمانيا يقدر دور النظام الرأسمالي فيما وصلت إليه البلاد من رقي وتقدم، وأن تحطيم الرأسمالية بثورة كتلك التي دعا إليها كارل ماركس قد تؤدي إلى انهيار اقتصادي تخسر فيه الطبقات العمالية أكثر من خسارة الطبقة الرأسمالية نفسها.

ومن أشد أوجه النقد للنظرية الماركسية أن الدولة التي قامت فيها الثورة الشيوعية، ونجحت فيها هي روسيا القيصرية الزراعية الإقطاعية المتخلفة تعليميا وصناعيا، والتي كانت تحكمها قيصرية وأرستقراطية فاسدة ومرتشية، ومستندة إلى قيادة عسكرية جاهلة، وتفتقر بشدة إلى نظام رأسمالي واع. لقد كانت روسيا مهيأة لثورة، وكانت الدعاية الماركسية قوية ومنظمة في روسيا، وعجزت سلطات القيصر عن استئصالها وإن كانت قد تمكنت من إبعاد عدد من زعمائها من أمثال لينين، إلا أن شبكات النشاط الشيوعي ظلت منتشرة في روسيا تنتظر الفرصة المواتية. [٣٠]

وكانت القوى السياسية في روسيا قبيل الحرب العالمية الأولى تتكون من الأكتوبريين الذين أطلق عليهم هذا الاسم لأنهم كانوا يطالبون القيصر نيقولا الثاني بأن ينفذ ما جاء في تصريحه في ٣٠ أكتوبر ١٩٠٥، وكانوا من أكثر الجماعات اعتدالاً، وكانوا في غالبيتهم من الأشراف الأحرار الذين كانوا يؤيدون قيام حكومة تكون مسؤولة أمام مجلس الدوما. وهناك حزب الديموقراطيين الدستوريين الكادت Cadets ، وكذلك حزب الثوريين الاشتراكيين والحزب الديموقراطي الاشتراكي، والتي تكلمنا عنها آنفا.

ولابد في هذا الإطار أن نرصد أن الديموقراطيين الاشتراكيين كانوا قد انقسموا على أنفسهم في سنة ١٩٠٣، وكان الخلاف في أول الأمر بسبب التنظيم الداخلي

للحزب. ثم اتسعت هوة الخلاف حتى أصبح الحزب فريقين. وقد اجتمع زعماء هذا الحزب في لندن سنة ١٩٠٣، وانقسمت الآراء فيما بينهم على تنظيم الحزب، وعلى مسألة التعاون مع الأحزاب الأخرى التي تميل إلى الاعتدال في طلب الإصلاح. ففريق منهم كان يتزعمه لينين، كانوا يعارضون في أي تعاون مع الأحزاب المعتدلة، ولا يوافقون بتاتا على سياسة الاعتدال أو الإصلاح بالتدريج، بل يريدون أن تصل الطبقة الكادحة إلى أهدافها في الحال.

أما الفريق الثاني، فكانوا يرون تطبيق النظام الاشتراكي بالتدريج لضرورة البدء بتعليم الطبقة الكادحة حتى تتفهم واجباتها وتتشرب روح الاشتراكية، ولا تنقلب الحال إلى فوضى، وكان هذا الفريق لا يمانع في التعاون مع الأحزاب الأخرى. ولما أخذت الأصوات على هذين الرأيين انضمت الأغلبية إلى لينين ولذلك أصبحوا يعرفون باسم البلشفيك Bolsheviki وهي كلمة روسية مشتقة من بلشوفيستو Bolshivsto بمعنى الأغلبية، أما الفريق الآخر فأصبحوا يعرفون باسم المنشفيك Menshiviki بمعنى الأقلية.

وهكذا كان البلشفيك يريدون تحقيق الأهداف الاشتراكية عن طريق الثورة، وأما المنشفيك فكانوا يرون تحقيقها عن طريق التطور.

ولم تكن حكومة القيصر بغافلة عما بيته زعماء البلشفيك، فاضطهدتهم، وطاردتهم، فهاجر معظمهم وعلى رأسهم لينين إلى خارج البلاد قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤. (٣١)

وفي عامي ١٩١٠، ١٩١١ كانت هناك علامات على فترة تاريخية جديدة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية في روسيا، فقد ازداد عدد السكان بمقدار الثلث بين عامي ١٩٠٠ و ١٩١٢، مما زاد من حجم استهلاك السوق للرأسمالية الروسية. كما قامت الشركات الخاصة ببناء خطوط السكك الحديدية. وبعبارة أخرى تقدم النظام الرأسمالي بعض الشيء، وتضمن ذلك تقدم بعض الصناعات الهندسية وبناء السفن والصناعات المعدنية . ورغم ذلك كان البون لا يزال شاسعا بين روسيا ودول غرب أوروبا المتقدمة صناعياً.

وقد بدأت المتاعب سنة ١٩١٠ على شكل مظاهرات للعمال، ففي صيف ذلك العام ثار عمال النسيج في موسكو. وفي نوفمبر ١٩١٠ عندما توفي ليوتولستوي طلب عمال ١٦ مصنعاً في سان بطرسبرج من مجلس الدوما تخليد ذكرى ذلك الإنساني الكبير بإلغاء اضطهاد العمال. وفي عام ١٩١١ تجاوز عدد المتظاهرين ١٠٠,٠٠٠ عامل.

وفي نفس ذلك العام (١٩١١) حدثت اضطرابات في جامعة موسكو كاحتجاج الطلاب على تعذيب الشرطة لواحد وعشرين أستاذاً وعدد كبير من المحاضرين. كما شارك في المظاهرات والاضطرابات أعداد ضخمة من طلبة الجامعات الأخرى.

وأصبح للبلشفيك صحيفة قانونية هي زفسدا Zvesda النجم والتي ظهرت في نهاية عام ١٩١٠. وكان لينين الذي كان يعيش في الخارج وقتئذ يشرف على تحرير الصحيفة، بينما كان جوركي M. Garky، وأو لمنسكي M. Olminsky وبوليتاييف N.Poletayev من كتابها. وقد اهتمت زفسدا بأحوال العمال في روسيا، ولعبت دوراً في إفساح الطريق لعقد المؤتمر الديموقراطي الاجتماعي لكل روسيا، والذي عقد في براج في يناير ١٩١٢. وقد أرسلت كل المنظمات الديموقراطية الاجتماعية العاملة في روسيا ممثلين لها إلى المؤتمر. وكان كل الممثلين من البلشفيك من كازان وسازاتوف وابكو وتفلس، وكل المراكز الصناعية الأخرى. وقد انتهى المؤتمر إلى تحقيق الاتحاد الرسمي بين البلشفيك والمنشفيك في حزب واحد، وانتخب المؤتمر لجنة مركزية برئاسة لينين.

وقد شاهدت الفترة التي تلت عقد المؤتمر حادثا هاما في سيبريا هز كل روسيا، ففي ٤ أبريل ١٩١٢ أطلق الحراس النار على العمال في شركة لينا جولد فيلــدز Lena Goldfields. وكان هذا المشروع للتنقيب عن الذهب مملوكاً لشركة احتكارية خاصة هي مؤسسة ليناجولد فيلدز. وكان ٧٠٪ من أسهم الشركة مملوكا للشركة الاستثمارية البريطانية لينا. كما كانت شركة روسيا الآسيوية، والبنك الدولي (الروسي) يمتلكان بعض الأسهم، هذا بالإضافة إلى أن أرملة الكسندر الثالث الأميرة ماريا كانت تمتلك بعض حصص الأسهم. ودفعت الشركة أرباحاً ضخمة لحملة الأسهم.

ولكن مديري المشروع في سيبريا وعلى بعد نحو ٢٠٠٠ كيلو متر من أقرب محطة للسكك الحديدية، استغلوا العمال أسوأ استغلال، فكان العمال يعملون على مدى ١٢ ساعة يومياً دون الحصول على مكافآت إضافية وسط هذا المناخ الثلجي القارس. وكانوا يعيشون في أكواخ غير ملائمة للحياة في سيبريا. كما كان الطعام يباع من محلات الشركة وحدها.

وتحت زعامة مجموعة من العمال البلشفيك، أعلن عمال جولد فيلد إضرابهم عن العمل، وطالبوا بتحسين أحوالهم المعيشية، وقدم العمال خطاباً أو ملتمساً بذلك إلى وكيل الشركة، ولكن تم إطلاق النار عليهم في ٤ أبريل ١٩١٢، وقتل ٢٧٠ فوراً وجرح ٢٥٠ عاملاً . وقد قوبلت هذه الإجراءات بالترحيب من السلطات في سان بطرسبرج. وفي إجابة على سؤال قدمته المجموعة الديموقراطية الاجتماعية في الدوما صرح وزير الداخلية في الحكومة القيصرية «إن هذا الذي حدث سوف يحدث في المستقبل». وقد تظاهر العمال والطلاب في سان بطرسبرج وموسكو على شكل احتجاج على قتل عمال الشركة.

وفي أول مايو ١٩١٢ تظاهر ٤٠٠,٠٠٠ عامل في سان بطرسبرج وفي كل المدن الروسية الكبرى ضد سوء المعاملة.

وفي ٢٢ أبريل ١٩١٢ بدأت صحيفة البرافدا في الظهور كجريدة ممثلة لحزب البلشفيك، وقد انتقل لينين إلى كراكو Krakow ليكون قريباً نسبياً وليمكنه الإشراف على الصحيفة. وقد أوقفت الحكومة القيصرية صحيفة البرافدا في كثير من المناسبات، ولكنها كانت تعود بأسماء أخرى مثل رولوخايا Rolochaya وسوفرنايا Sovernaya، وترودا .Truda

كما تكونت الجبهة المضادة للبلشفيك من تروتسكي في أغسطس ١٩١٢ باسم مجموعة أغسطس، وحاولت إيقاف المد العمالي تحت راية البلشفية. (٣٢)

روسيا والحرب العالمية الأولى

كانت تطورات الحرب العالمية الأولى ذات أهمية قصوى بالنسبة إلى قيام الثورة الشيوعية في روسيا وسقوط القيصرية. (٣٣)

ففي صباح ٢٨ يونيو ١٩١٤ قتل ولي عهد النمسا وزوجته على يد أحد الشبان في البوسنة، ورأت الحكومة النمساوية المجرية في ذلك دليلاً على الخطر الذي تمثله القومية اليوغوسلافية عليها، فاتهمت الصرب بالمسؤولية، وأعلنت الحرب على صربيا. وكان موقف ألمانيا هو التأييد التام للنمسا. أما موقف روسيا فكان عدم الموافقة على سحق صربيا وترك ميدان البلقان مفتوحاً للسياسة النمساوية المجرية.

وفي ٢٩ يوليو ١٩١٤ ضربت جيوش النمسا بلغراد واحتلتها، ومن ثم قررت روسيا إعلان التعبئة العامة، وبدا الصدام النمساوي الصربي وكأنه صدام نمساوي روسي.

وكانت ألمانيا تعلم أن فرنسا ستقدم المساعدة لروسيا، ولذلك بنت خطتها على أن تبدأ هجوماً خاطفاً على فرنسا، فإذا هزمت فرنسا تتجه القوات الألمانية نحو الجبهة الروسية. كما أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا في ٥ أغسطس ١٩١٤. هكذا ومع شهر سبتمبر تحول الوفاق بين روسيا وفرنسا وإنجلترا إلى تحالف عسكري ضد ألمانيا والنمسا.[٣٤]

وعلى أية حال، فقد أحرزت القوات الروسية في أول الأمر بعض الانتصارات الأولية على القوات الألمانية، لانشغال الأخيرة بتوجيه ضربة حاسمة لفرنسا لعلها تكون ضربة كفيلة بإخراجها من الحرب، ولكن فرنسا صمدت، مما أدى بالقوات الألمانية إلى التحول إلى ضرب روسيا ضربة حاسمة تخرجها من الحرب.[٣٥]

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) نسيت الأحزاب الروسية خلافاتها مؤقتاً، وظهرت روح جديدة من الولاء الوطني للقيصر أثناء محنة الحرب، واختفت المعارضة في مجلس الدوما. ولكن ذلك الإجماع والولاء لم يستمر طويلاً. إذ أنه في عام ١٩١٥ استطاع الألمان اكتساح الجيوش الروسية وطردها من غاليسيا وبولندا، ومن ثم استنكرت جموع الشعب الروسي عجز القيادة الروسية، وعدم كفاية القائمين بالأمر على تسيير دفة الحرب، ونددت بالفساد الذي استشرى في دواوين الحكومة القيصرية، وانتشرت الإشاعات عن فساد الأسلحة ومتاجرة النبلاء فيها.

والواقع أن روسيا لم تكن مستعدة استعدادا كاملاً للحرب، لقد جندت الحكومة الروسية حوالي ١٥ مليوناً من الجنود، وهو عدد لم تستطع الحكومة بما لديها من إمكانيات حربية ضعيفة أن تجهزه بكل ما يحتاج إليه في ميادين القتال من أسلحة وذخائر وإمدادات ومؤن. فهي في الوقت الذي جندت فيه الملايين من الفلاحين وحرمت الأراضي الزراعية من الأيدي العاملة فيها، فإنها بذلك أثرت في حجم المحصول السنوي الذي كان من الواجب أن يتضاعف ليسد حاجة البلاد أثناء الحرب. كما أنها لم تستطع أن تنتفع من أغلب هؤلاء المجندين، لأنهم - وهم على حالتهم من نقص الأسلحة والذخائر والمؤن - أصبحوا عالة على ميادين القتال، وعاملاً من عوامل الهزيمة.

ومما قتل الروح المعنوية في الشعب والجيش على السواء، ما كانت تتناقله الألسنة بين الشعب عن سوء حالة الجيش، وبين الجيش عن سوء حالة الشعب. فالشعب في القرى والمدن كان يسمع الكثير عما يعانيه الجنود من سوء التغذية، وقلة الأسلحة وفسادها. كما كان أفراد الجيش يتهامسون في الخنادق بما تصل إليه من الأنباء والشائعات عن المجاعات والاضطرابات في أرض الوطن.

وتوالت الهزائم على الجيش الروسي، ووقع ملايين الجنود في ميادين القتال ما بين قتلى وجرحى، وأخذت جماهير غفيرة من المهاجرين الذين لا مأوى لهم يتجهون شرقاً تتبعهم القوات المنهزمة، واضطربت البلاد أيما اضطرب، وتصايح الناس مطالبين محاكمة القادة المنهزمين وكبار رجال الحكومة الذين أنزلوا بروسيا تلك الكوارث لعدم كفايتهم وفساد ذممهم، ووقعت المظاهرات العنيفة في المدن، والاضطرابات الخطيرة في مصانع الذخيرة.

ومع ذلك فقد اختار القيصر في فبراير ١٩١٦ بوريس ستورمر Boris Sturmer رئيساً لوزرائه، وكان رجلا محافظا من كبار الإقطاعيين الأرستقراطيين، وهو في الوقت نفسه من أصل ألماني، ومعروف بميوله الألمانية، حتى إنه اتهم بتدبير انهزام الجيش ليمهد بذلك لعقد صلح منفرد بين روسيا وألمانيا. أضف إلى ذلك أن الأسرة المالكة الروسية كانت خاضعة إذ ذاك تحت تأثير الراهب جريجوري راسبوتين، الذي

اعتقد الكثيرون أنه كان على صلة وثيقة بإحدى المنظمات الألمانية في سان بطرسبرج.

وقد اتضح للأحزاب المتطرفة والمعتدلة على السواء خلال عام ١٩١٦ أن انتصار روسيا في الحرب أصبح أملاً بعيد المنال، مادام القائمون بالأمر هم من الطبقة الأرستقراطية التي فضلت مصالحها الخاصة على مصالح الوطن. وفي نهاية ذلك العام كانت الاستعدادات قائمة في كثير من الدوائر للقيام بحركة انقلاب يشترك فيها بعض العسكريين في كل من سان بطرسبرج وموسكو، وكانت كل الخطط تتجه إلى إجبار القيصر نيقولا الثاني على التنازل عن العرش.

وفي الوقت نفسه كانت تسري في الجيش الروسي - وهو الذي كان يتكون معظمه من ملايين الفلاحين - روح التذمر والسخط والقلق والبؤس، بالإضافة إلى أن قيادة الجيش كانت ضعيفة فاسدة خائنة.

وفي شتاء ١٩١٦ - ١٩١٧ أخذ الجيش الروسي يسير نحو الانحلال، إذ توفرت فيه إذ ذاك عوامل الهزيمة، وهي عدم الرغبة في مواصلة القتال، وانعدام النظام، وعدم الثقة في القيادات، ومحاولة الهروب من الجندية. لذلك كان الجيش الروسي أول عامل من عوامل الثورة التي قامت في روسيا في ربيع عام ١٩١٧.

كذلك كانت ظروف البلاد الاقتصادية تدعو إلى التذمر بين الطبقات، فقد ارتفعت أثمان الحاجيات ارتفاعاً فاحشاً، ونقصت كميات الفحم نقصاً أدى إلى إغلاق كثير من المصانع، وكانت حركة المواصلات بالنسبة للأهالي تدعو إلى المضايقة، إذ أنها كانت تتوقف عدة أسابيع لتتمكن القطارات العسكرية التي تحمل الجنود والأسلحة والذخيرة والإمدادات والمؤن من الوصول إلى ميادين القتال. وكذلك فإن انتزاع أعداد ضخمة من الفلاحين من المزارع لتجنيدهم في تلك الحرب العنيفة، واحتياج الحكومة إلى إطعام تلك القوات الهائلة... كل ذلك كان يهدد بظهور شبح المجاعة في المدن الكبرى. وجاء الشتاء ببرده القارس، في الوقت الذي كان الشعب لا يجد ما يستدفئ به من وقود وملابس، لذلك تعالت الصيحات مطالبة بالخبز والوقود.[٣٦]

أما في ميادين القتال، فقد توالت الهزائم على روسيا، حقيقة لم تنسحب روسيا من الحرب العالمية الأولى، ولكن كلفها ذلك سلسلة من النكبات المروعة، وفقدت خلالها أكثر من مليوني جندي، دون أن تكون هناك معركة مشرفة تشجع على استمرار الصمود، وتحولت بعض الهجمات الألمانية على القوات الروسية إلى مجرد مذابح للجنود الروس، وفقد الضباط الروس سيطرتهم على جنودهم في كثير من ميادين القتال، وأصبحت الحرب شيئاً لا يحتمل للجندي الروسي.

وفي داخل البلاد، تطورت الأزمات بسرعة من سيئ إلى أسوأ، وانتشرت حركات التمرد والعصيان في المدن الكبرى بين عمال المصانع وخاصة في منطقة سان بطرسبرج في مارس ١٩١٧، وكان القيصر نيقولا الثاني يتولى إدارة دفة المعارك الخاسرة بعيداً عن عاصمته. (٣٧)

وفي ٨ مارس ١٩١٧ أضرب حوالي ٩٠,٠٠٠ عامل في سان بطرسبرج، وانتهزت بعض العناصر المتطرفة الفرصة للاستفادة من ذلك الموقف، وسرعان ما ارتفعت الأعلام الحمراء واللافتات الثورية التي تحض على قلب نظام الحكم.

تطور الأحداث وسقوط القيصرية

في يوم الأحد ١١ مارس ١٩١٧ حدثت حركة عصيان بين الجنود قامت بها إحدى حاميات سان بطرسبرج، عندما صدرت إليها الأوامر بمقاومة المتظاهرين، وسرت تلك الحركة بين معظم جنود الحامية، حتى بلغ من انضم إلى حركة العمال حوالي ٢٥,٠٠٠ جندي، وما لبثت عناصر الثورة من جنود وعمال أن سيطرت على العاصمة سيطرة تامة. (٣٨) وقد أطلق الثوار على العاصمة سان بطرسبرج اسم بتروجراد، وأراد القيصر أن يرسل جيشاً للقضاء على الثوار، ولكن الجنرالات والجنود الروس رفضوا ذلك، وأبوا أن يوقعوا البلاد في هوة الحرب الأهلية في الوقت الذي كانت فيه الأراضي والأرواح الروسية تسقط تحت أقدام المنتصرين الألمان. (٣٩)

أما أعضاء مجلس الدوما الذين لم يجرؤوا على تحدي القيصر علناً فقد اجتمعوا اجتماعا غير رسمي، وقرروا تعيين لجنة مؤقتة تتسلم السلطة، وفي الوقت نفسه كان

العمال المضربون قد كونوا مجلس السوفييت، وانتخب ذلك المجلس لجنة تنفيذية لتسلم السلطة أيضاً. وهكذا أصبح في المدينة لجنتان ثوريتان: إحداهما معتدلة، والأخرى متطرفة، وكل منهما تدعي السلطة، إحداهما لجنة الدوما المؤقتة، والثانية اللجنة التنفيذية السوفيتية.

وقد حدثت محاولات لإدماج اللجنتين في حكومة واحدة مؤقتة، على أن تكون أغلبيتها من وزراء بورجوازيين، ويحتفظ فيها بمنصبين فقط لممثلي السوفييت، ولكن اللجنة التنفيذية السوفيتية صرحت بأن ممثلي السوفييت لا يستطيعون الاشتراك في الحكومة المؤقتة، لأن الحكومة كلها بورجوازية، على الرغم من تظاهرها بتأييد الثورة. وأخيراً تكونت الحكومة المؤقتة، وكان أعضاؤها من الأكتوبريين، ومن الديمقراطيين الدستوريين. ودخل الوزارة كرنسكي Kerensky وكان اشتراكياً معتدلاً من أعضاء مجلس الدوما.

وفي ١٤ مارس ١٩١٧ حاول القيصر أن يصل إلى سان بطرسبرج (بتروجراد) ولكن العمال أجبروا قطاره على التوقف، لأنهم نزعوا القضبان الحديدية. فاضطر القيصر إلى اصطناع المسالمة، بأن حاول تأليف وزارة دستورية مسؤولة، ولكن كان قد فات الأوان لأمثال هذه الحلول، وصمم الرأي العام إذ ذاك على أن يعلن القيصر تنازله عن العرش. ومع أن الرأي العام كان مجمعاً على تخلي القيصر عن منصبه، إلا أنه حدث اختلاف على الخطوة التي تلي ذلك التنازل، فأغلبية اللجنة الحكومية المؤقتة كانت تميل إلى تعيين الدوق ميشيل وصياً على العرش حتى يبلغ ولي عهد القيصر سن الرشد. وقد نصح القادة القيصر بأن يتنازل عن العرش، لأن ذلك كان السبيل الوحيد لإنقاذ الموقف. وأخيراً اقتنع القيصر وأعلن تنازله، مبدياً رغبته في أن يلي العرش بعده أخوه ميشيل بدلاً من انتقاله إلى ابنه أليكسس.

على أن القيصرية لم يعد لها أنصار بين صفوف الشعب، فالسوفييت في بتروجراد كانوا يطالبون بإقامة جمهورية، وذهب وفد من نواب الدوما إلى الدوق ميشيل، يبلغه أن الشعب يطلب منه التنازل عن الوصاية، وتسليم الحكم إلى الحكومة المؤقتة، حتى تجتمع الجمعية التأسيسية لتقرير ما سوف يتبع في المستقبل. وقد اضطر الدوق إلى

تلبية نداء الثورة، وناشد الشعب الروسي أن يخضع للحكومة المؤقتة إلى أن يتم عقد الجمعية التأسيسية. وهكذا انتهت أسرة رومانوف التي حكمت روسيا منذ عام ١٦١٣.

والواقع فإنه عندما تولت الحكومة المؤقتة الحكم بدأت الثورة الروسية في مظهرها البورجوازي على الصعيد الحكومي، وكانت الحكومة تمثل ائتلاف الأحزاب المعتدلة، وكان رئيسها الأمير جورج لفوف Lvov ووزير خارجيتها بول مليوكوف Miliukov المؤرخ الروسي الكبير زعيم الحزب الديموقراطي الدستوري، ووزير حربيتها هو الكسندر جوتشكوف Guchkov زعيم الأكتوبريين، وأصبح كرنسكي وزيراً للعدل، وبالجملة فقد كانت تتمثل في الوزارة العناصر البورجوازية، ففيها ممثلو أصحاب الضيعات الزراعية الكبيرة وأصحاب المصانع والأعمال وأرباب المهن، فكانت حكومة بورجوازية في تكوينها وأهدافها، لأنها كانت ترمي إلى تأسيس دولة دستورية ديموقراطية برلمانية. وربما كانت الوزارة تضمر في نفسها الرجوع إلى الملكية أيضاً، وهدفت إلى جانب ذلك إلى متابعة الحرب العالمية الأولى بالتعاون التام مع بريطانيا وفرنسا. هذا بالإضافة إلى أن وجهة نظر الحكومة تبلورت في حماية الملكية الخاصة، وتسوية مسألة ملكية الأرض الزراعية عن طريق الجمعية التأسيسية، وعدم الاستيلاء على الأراضي بدون تعويض أصحابها، وأن لا يتم أي تغيير في نظام الحكم إلا عن طريق جمعية دستورية ينتخبها الشعب.

وظن الناس في الخارج أن روسيا أصبحت دولة ديموقراطية، وسرعان ما اعترفت بهذا النظام الجديد كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليابان.

وفي الوقت الذي ظن العالم أن الأمر قد استتب في روسيا على هذا النحو كانت الجماعات الروسية المتطرفة قد نظمت نفسها لكي تضرب ضربتها فتكونت في جميع أنحاء روسيا جمعيات سوفيتية، اختارها العمال في المناطق الصناعية، واختارها الفلاحون في المناطق الزراعية، وتأسست مثل هذه الجماعات أيضاً بين جنود الجيش، وازداد نفوذ الأحزاب المتطرفة والتي كانت تضم أعداداً هائلة من العمال والفلاحين، والذين كانت أهدافهم تختلف عن أهداف الأحزاب الممثلة في الحكومة المؤقتة، إذ كانوا يريدون استمرار الثورة الاجتماعية، بالإضافة إلى قلب نظام الحكم،

والتخلص من البورجوازية. كما أن الفلاحين كانوا يريدون الاستيلاء على الأراضي الزراعية، وتوزيعها عليهم بدون إعطاء أي تعويض لملاكها. أما العمال فكانوا يهدفون إلى التخلص من الرأسماليين وتأسيس نظام اشتراكي يضمن سيطرة العمال أنفسهم على المصانع. وكانت كل هذه الطبقات الكادحة من فلاحين وعمال قد سئمت الحرب وأصبحت تتوق إلى عقد صلح لا تخسر فيه روسيا أرضاً ولا تدفع تعويضاً.

وقد لاحت لتلك الطبقات فرصة تعبر فيها عن وجهة نظرها عندما تقرر عقد مؤتمر جماعات السوفييت في أبريل ١٩١٧، وكان أعضاء هذا المؤتمر يمثلون حزب الديموقراطيين الاشتراكيين من المنشفيك والمعتدلين من حزب الثوريين الاشتراكيين، وهي أحزاب لم تشترك بممثليها في الحكومة المؤقتة. وقد اتخذ المؤتمر عدة قرارات منها المطالبة بأن تتخلى الحكومة الروسية عن الروح الاستعمارية، وأن تعمل على تحقيق مبدأ حق تقرير المصير، وعقد صلح عادل لا يرمي إلى ضم بلاد جديدة، لا تخسر فيه روسيا شيئاً من أراضيها، ولا تدفع تعويضاً ينزل الخراب بماليتها. وقرر المؤتمر تأييد الحكومة المؤقتة القائمة، على شرط أن تسير وفق تلك المبادئ التي قررها المؤتمر.

ومع أن تلك الصيحات قد بلغت أسماع الحكومة القائمة، إلا أنها لم تلق إليها بالا، بل نجد أن مليوكوف وزير الخارجية الروسي يرسل في أول مايو مذكرة إلى حكومتي إنجلترا وفرنسا يقول فيها إن روسيا قد عزمت على ألا تعقد صلحاً منفرداً، وأنها تصر على مواصلة الحرب، حتى تنتصر انتصاراً حاسماً، وأنها لن تتخلى عن حلفائها.

وقد أثارت تلك المذكرة غضب السوفييت في بتروجراد، وعقدت الاجتماعات في العاصمة وفي موسكو للاحتجاج على تصرف الحكومة، وحمل المتظاهرون الأعلام الحمراء منادين بسقوط مليوكوف حتى أنه اضطر إلى الاستقالة من منصبه.

ورأت الحكومة المؤقتة أنها في حاجة إلى تدعيم مركزها بإدخال بعض وزراء يمثلون الأحزاب السوفيتية من المنشفيك، وبعض المعتدلين من الحزب الاشتراكي الثوري، وفعلاً ضمت ثلاثة أعضاء من كل حزب منهما. وظل الأمير لفوف رئيساً

للوزارة. وكان أبرز أعضائها كيرنسكي وزير الحربية الجديد، وخطيب مجلس عمال بتروجراد. وكان أول أهداف تلك الوزارة مراجعة سياسة مليوكوف الحربية. (٤٠)

لقد اتخذ زعماء المنشفيك قرارهم بالاشتراك في الحكومة المؤقتة، لأنهم كانوا يريدون القضاء على نشاط البلشفيك.. ولكن ومنذ ١٦ أبريل ١٩١٧ كان قد وصل إلى بتروجراد الزعيم الشيوعي فلاديمير أوليانوف (لينين) من منفاه في سويسرا. (٤١)

وقد استطاع لينين (٤٢) في الأشهر القليلة التالية أن يستخدم كل إمكانياته ليسيطر على الأمور، وسرعان ما أصبح الزعيم الأول دون منازع للبلشفيك، بينما احتل المكان الثاني في الحزب ليون تروتسكي Trotsky، على الرغم من أنه لم ينضم إلى حزب البلشفيك إلا بعد ثورة مارس.

وكان تروتسكي يهوديا من الطبقة المتوسطة، ويعتنق الآراء الاشتراكية الثورية، وقد نفي مرتين إلى سيبريا، واستطاع الفرار في كل مرة. وعندما قامت الثورة كان تروتسكي يعيش في نيويورك، بعد أن قضى عدة سنين في المنفى، حيث عاش مدة في فينا وأخرى في باريس. وعندما حاول العودة إلى روسيا، قبض عليه في هاليفاكس، ولكن شفع له كيرنسكي، فسمح له بدخول روسيا.

كان هؤلاء الزعماء البلشفيك يعلمون أن الشعب الروسي يتحفز للثورة على الحكومة المؤقتة، لأنه لم يجد فارقاً كبيراً بينها وبين الحكومة القيصرية القديمة، فهي لم تلب نداء الشعب بمصادرة الأراضي وتوزيعها، ولم تتخذ الحكومة أية خطوة نحو القضاء على النظام الرأسمالي في الصناعة، ولم تحاول الإسراع في عقد الجمعية التأسيسية لوضع الدستور الجديد، بل راعهم أن تلك الحكومة ماضية في مواصلة الحرب العالمية الأولى، رغم ضعف روسيا الحربي، ورغم ما منيت به القوات الروسية من هزائم وخسائر ضخمة في الأرواح. أما البلشفيك فقد أصدروا بيانا أوضحوا فيه برنامج حزبهم الذي يتلخص في الإسراع بعقد صلح عام، ومصادرة الضياع الواسعة في الحال بغير دفع تعويض لأصحابها وأن تصبح المصانع للعمال أنفسهم يديرونها ويسيطرون عليها، وأن يراقب الشعب الإنتاج وتوزيعه، وأن تحل مجالس السوفيت التي

تتكون من العمال والفلاحين والجنود مكان الشركات والمؤسسات، وأن تحرم الطبقات الرأسمالية من الحقوق التي كانت تتميز بها.

إلا أنه بينما كان البلاشفه ينادون بتلك المبادئ الثورية المتطرفة، كان كيرنسكي وزير الحربية يبذل أقصى ما في كافة روسيا ليواصل الحرب، معتقداً أن إحراز أي نصر روسي في ميدان الحرب ضد دول الوسط (ألمانيا والنمسا وتركيا وبلغاريا) يقوي من مركز الحكومة المؤقتة، ويرفع الروح المعنوية عند العسكريين والمدنيين على السواء. وألقى بآخر سهم في جعبته في أواخر شهر يونيو ١٩١٧ في كلتا الجبهتين النمساوية والألمانية، فقد قام الجيش الروسي بالهجوم، ونجحت الخطة في الأيام الأولى من شهر يوليو، إلى أن وقعت الواقعة في اليوم التاسع من ذلك الشهر، عندما شدد الألمان هجومهم في اتجاه تارنوبول Tarnopol ، عندئذ أخذت القوات الروسية تتحطم وتنهار أمامهم، وبدأ التمرد بين الجنود الروس وأطلقوا النار على ضباطهم، لأنهم أجبروا على الصمود أمام الألمان، وأخذت الخطوط الروسية تتكسر عند غاليسيا، وشرع الجنود يفرون مذعورين.

وبينما كان هذا يحدث في ميدان القتال، كانت أحوال روسيا الداخلية تسير نحو الثورة، ففي ١٦ يوليو بذل البلشفيك أول محاولة جدية لهم لتنظيم الثورة الداخلية في بتروجراد، وقد اشترك في إشعالها في أول الأمر عدد كبير من رجال الحامية في العاصمة ممن تشبعوا بالدعاية البلشفية، فاشتركوا مع مجموعات مسلحة من العمال في مظاهرات صاخبة حاملين لافتات كتب عليها «تسقط الحرب» «يسقط الوزراء الرأسماليون» وانتشرت الأعلام الحمراء بين الجماهير.

وقد حاول كيرنسكي أن يخمد الثورة بالقوة، فأمر ستة آلاف جندي بأداء تلك المهمة، وبعد يومين من الصراع الدامي، تمكن جنود كيرنسكي من هزيمة البلشفيك وأنصارهم من رجال الحامية.

وقد اتضح للبلشفيك إذ ذاك أنهم على الرغم من كسبهم الأنصار في بتروجراد، إلا أنهم لا يزالون في حاجة إلى تأييد الأقاليم لهم، ونشر الدعاية البلشفية بين جنود الجيش نفسه. وعندئذ قرر لينين أن يتخلى عن المناداة بإسقاط الحكومة المؤقتة في

الحال، وبذل أقصى الجهود لنشر الدعاية بين رجال الجيش نفسه، وعدم الاقتصار على حامية بتروجراد.

وفي تلك الظروف الصعبة، كانت الحكومة المؤقتة تجتاز أزمة دقيقة نتج عنها استقالة لفوف، واختيار كيرنسكي رئيسا للوزارة. وفي الوقت نفسه بدأ المحافظون من أحزاب اليمين الذين يؤيدون عودة القيصرية يحاولون الظهور، ولم ير البلشفيك بدأ من العمل على الدعاية «لديكتاتورية الطبقة العاملة» .

وكان الموقف يتطور بسرعة من أسوأ إلى أسوأ، وتقدم الألمان، فاستولوا على ريجا Riga، وهددوا بتروجراد ذاتها، واستعدت حكومة كيرنسكي للانتقال إلى موسكو، وقامت في القرى حركات ثورية للاستيلاء على الأراضي، وسارت في المدن الروسية مظاهرات صاخبة تطالب بالطعام. وكانت حالة البلاد المالية والصناعية قد هوت إلى الحضيض. واجتمعت الدعاية القيصرية والدعاية البلشفية والدعاية الألمانية على تحطيم معنوية الشعب. إلا أن الدعاية البلشفية فاقت كل دعاية، وانتشر بين الناس نداؤهم المعروف... «السلام للجيش والأرض للفلاحين والمصانع للعمال».

وازداد أنصار البلشفيك في سرعة خارقة، فانضم إليهم الفلاحون الذين لم يكن الانتصار على ألمانيا يهمهم بقدر الانتصار على كبار الملاك، والاستيلاء على أراضيهم، وانضم إليهم العمال أملاً في السيطرة الكاملة على الصناعة والمصانع، وانضم إليهم الجنود الذين كانوا يعاملون أسوأ معاملة، والذين عانوا الهزيمة المرة في الحرب، أملاً في إنهاء الحرب والعودة إلى قراهم لكي يأخذوا أنصبتهم في الأراضي التي ستصادر.

وقد أدرك لينين عندئذ أن الوقت قد حان لكي يضرب ضربته، فدعا اللجنة المركزية لحزب البلشفيك إلى اجتماع سري في أكتوبر ١٩١٧، تقرر فيه القيام بثورة مسلحة ضد الحكومة القائمة.

وأعد البلشفيك لكل شيء عدته حتى تنجح الثورة، وفي مساء ٦ نوفمبر أعلنوا أن أعداء الثورة بدأوا يرفعون رؤوسهم، وأن القادة القيصريين يريدون القضاء على

«المؤتمر العام للسوفيت والجمعية الدستورية» وسرعان ما احتلت القوات البلشفية أبنية المرافق العامة في بتروجراد أثناء الليل، كمحطات السكك الحديدية، ومكاتب التلغراف والتليفون، والكباري وغيرها من المرافق. وعندما أصبح صباح ٧ نوفمبر ١٩١٧ صدر بيان بلشفيكي يعلن سقوط الحكومة المؤقتة، وتم القبض على كل أعضاء تلك الحكومة فيما عدا كيرنسكي الذي استطاع الفرار.

وقد أقر مؤتمر السوفييت العام الثورة، وكون في نفس اليوم حكومة مؤقتة جديدة، أطلق علها المجلس السوفييتي لوكلاء الشعب Soviet of The People's commisars، وانتخب لينين رئيساً لهذا المجلس، وتروتسكي وزيراً للخارجية.

وبعد مضى أسبوعين على ثورة نوفمبر، أرسل تروتسكي مذكرة إلى الممثلين الدبلوماسيين في العاصمة الروسية، يقول فيها إن الحكومة السوفيتية تنوي «أن تقترح على جميع الشعوب وحكوماتها عقد هدنة سريعة في الميادين تمهيداً لعقد صلح ديموقراطي» وقد تجاهلت بريطانيا وفرنسا - حلفاء روسيا في الحرب - مذكرة تروتسكي. أما دول الوسط التي كانت تريد خروج روسيا من الحرب، فقد قابلت اقتراح السوفيت بسرور وترحيب. وقد تم فتح باب المفاوضات في ٣ ديسمبر في مدينة برست ليتوفسك، ثم أعلنت الهدنة بين روسيا ودول الوسط - ألمانيا والنمسا وتركيا وبلغاريا - وقد حاول البلشفيك أن تجري مفاوضات الصلح في ستوكهلم بالسويد لتسير في جو محايد بعيداً عن الأراضي التي تسيطر عليها دول الوسط، ولكن الألمان رفضوا هذا الاقتراح، وعقد اجتماع الصلح في ١٠ يناير ١٩١٨ في برست ليتوفسك. وأهم المشكلات التي كانت تعوق نجاح المؤتمر، هي مصير البلاد التي احتلتها القوات الألمانية والنمساوية. وقد طلب البلشفيك بجلاء تلك القوات عن بولندا وكورلاند ولتوانيا على أن يستفتى أهالي تلك البلاد في الحكم الذي يفضلونه. وقد رفضت دول الوسط هذا الطلب [٤٢] وإزاء ضعف القوات الروسية طالب لينين بالموافقة على الشروط الألمانية والتي وصفها بأنها «مهينة وقذرة»، وهدد بالاستقالة إذ لم تقبل هذه المعاهدة، وقد كان على روسيا السوفيتية أن تتنازل بمقتضى هذه المعاهدة عن أوكرانيا فضلاً عن أراضيها في بولندا والبلطيق. وقد صدق عليها مؤتمر الحزب في ٣ مارس ١٩١٨ تحت ضغط لينين، ولم يتم إلغاء هذه المعاهدة إلا بعد استسلام

ألمانيا في نوفمبر من نفس السنة . وهنا نجد أن هذا التراجع خطوة كان لازماً من أجل تعزيز سلطة النظام الاشتراكي الجديد، والتقدم بعد ذلك خطوات. (٤٤)

وهكذا عقد البلشفيك صلحا كلفهم أن تفقد روسيا حوالي ٥٠٠,٠٠٠ ميل مربع من الأرض، ويسكنها ٦٦ مليون نسمة، ولكن البلشفيك كانوا إذ ذاك يتطلعون إلى فترة سلام يستطيعون خلالها أن يقوموا بتجربتهم الخطيرة في إقامة دكتاتورية الطبقة العاملة.

أما بالنسبة لدول الوسط (ألمانيا والنمسا وتركيا وبلغاريا) فقد منحها انسحاب روسيا من الحرب، وانغماسها في ثورتها الخطيرة خدمة مؤقتة، إذ أعفاها من الحرب في جبهتين، ومهد الطريق لنقل أجزاء كبيرة من قواتها إلى الميدان الغربي للاشتراك في المعارك التي خاضتها في عام ١٩١٨.

وعندما أصبح كل شيء هادئاً في الميدان، لم يكن كل شيء هادئاً داخل روسيا، إذ كان أمام البلشفيك صعوبات خطيرة لابد لهم من التغلب عليها، فقد كان أعداؤهم يحاولون الانتقاض عليهم في كل مكان. وكانت في الواقع معركة حياة أو موت، نشبت بينهم وبين النبلاء ورجال الدين والجمهوريين المعتدلين، والضباط السابقين من أنصار القيصرية.

وقوي الأمل في نفوس العناصر الروسية المعارضة «الروس البيض» وأقدمت على تنظيم قواتها لإقامة «حكومات بيضاء»، وفعلاً تأسست حول مورمانسك واركانجل (حكومة روسيا الشمالية المؤقتة) وقام الأميرال اسكندر كولشاك Kolckak القائد السابق للأسطول الروسي في البحر الأسود بتأسيس حكومة روسية أخرى في أومسك بسيبريا، وذلك بمعاونة إنجلترا وفرنسا والجنود التشيك، وقام غيره من القادة الروس المعادين للنظام الجديد بتأسيس حكومات أخرى في جنوب روسيا، وجنوب أوكرانيا، والقرم.

ولما اشتد النضال بين الروس الحمر والروس البيض، وجد البلشفيك أن وجود القيصر نيقولا الثالث وأسرته في معتقلهم بالقرب من بتروجراد ما يشجع العناصر

المعادية للثورة، ويفتح أمامهم باب الأمل للرجوع إلى حكم القيصرية، ومن ثم أرسل البشفيك القيصر وأسرته إلى إحدى بلدان منطقة الأورال. وفي صيف عام ١٩١٨ استطاعت بعض قوات البيض أن تتخذ طريقها إلى تلك المنطقة، فأسرع بعض الضباط السوفيت إلى مقر القيصر وأعدموه مع أسرته رمياً بالرصاص .

أما الجيش الأحمر، فقد بذل تروتسكي أقصى ما لديه لتنظيمه وإعداده حتى يستطيع أن يتغلب على قوات الروس البيض التي سلحتها كل من فرنسا وإنجلترا وحلفائهما بأحدث الأسلحة، وسرعان ما أصبح الجيش الأحمر على أهبة الاستعداد لصد الخطر الأجنبي على البلاد .

وفي سنة ١٩١٩ بدأ هجوم قوات الروس البيض، حتى أصبحت على مرمى النظر من مدينة بتروجراد - التي سميت فيما بعد بمدينة لينجراد - ولكن الجيش الأحمر هزمها وردها على أعقابها.

وأخيرا اضطرت القوات الأجنبية إلى الانسحاب من روسيا في أواخر عام ١٩١٩ وبداية عام ١٩٢٠.

كما تمكن البشفيك في عامي ١٩١٩، ١٩٢٠ من القضاء على الحكومات المعادية التي تألفت في أوكرانيا وروسيا البيضاء، وقبضوا على زمام السلطة في ولايات القوقاز وأذربيجان وأرمينيا وجورجيا، حيث تألفت بها حكومات اتبعت النظام السوفييتي الجديد. أما سيبريا، فقد استطاعت القوات الحمراء أن تستولي فيها على أومسك وتومسك وأركتسك، والمنطقة التي تقع غرب بحيرة بيكال والتي تكونت منها جمهورية مستقلة أطلق عليها اسم جمهورية الشرق الأقصى. وفي نوفمبر ١٩٢٢ قررت الجمعية التأسيسية التي تكونت في تلك الجمهورية الانضمام إلى جمهورية السوفيت الاتحادية الاشتراكية الروسية. وكان مؤتمر السوفيت العام قد أصدر في ربيع عام ١٩١٨ دستوراً تأسست به جمهورية السوفيت الاتحادية الاشتراكية الروسية .U.S.S.R وتقرر أن تكون موسكو عاصمة قومية بدلاً من لينجراد.

وكانت تلك الدول الروسية الأربعة التي وقعت معاهدة إنشاء اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية هي جمهورية روسيا السوفيتية الاتحادية الاشتراكية وروسيا البيضاء وأوكرانيا، واتحاد جمهوريات القوقاز.

ولم يشأ البلشفيك أن يحتفظوا بكلمة (الروسية) كصفة لاتحاد الجمهوريات السوفيتية، وذلك لترك الباب مفتوحاً للولايات التي تسكنها أغلبية غير روسية للانضمام إلى ذلك الاتحاد السوفييتي، وإغرائها بأن ذلك الاتحاد يضم الولايات على أساس «العقيدة» السوفيتية لا على أساس سيادة العنصر الروسي.

وفي سنة ١٩٢٤ انضمت إلى الاتحاد جمهوريتان آسيويتان هما أوزبكستان وتركمانستان، ثم أخذت ولايات أخرى تنضم إلى اتحاد الجمهوريات السوفيتية حتى بلغت ست عشرة جمهورية بعد الاتساع الروسي في عامي ١٩٣٩- ١٩٤٠. [٤٥]

وهكذا قام الاتحاد السوفييتي كدولة كبرى استطاعت أن تكون قطباً من الأقطاب السياسية المعاصرة، ولكن بعد عدة عقود من السنين، بدأت عوامل كثيرة تؤثر على هذا الكيان السياسي العملاق، حتى سقط أخيراً، ولكن ما هي عوامل سقوط الاتحاد السوفييتي وانهياره ؟ أو بالأحرى ما هو عوامل سقوط الشيوعية ؟

إن الجزء التالي من هذه الدراسة سيجيب على هذه التساؤلات.

ثانيا: سقوط الاتحاد السوفييتي والشيوعية

معالم تاريخ الاتحاد السوفييتي ١٩١٧- ١٩٣٩

بعد أن تم تكوين اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية، اقترح الحزب الشيوعي المسيطر على سياسة الاتحاد تعديل الدستور الذي صدر عام ١٩١٨ والذي تأسست به جمهورية السوفيت الاتحادية الروسية. وتضمن الدستور الجديد طائفة من المبادئ تصلح أساسا للعلاقات التي تربط بين شعوب الجمهوريات السوفيتية، كضمان المساواة في الحقوق والواجبات للجمهوريات المختلفة، واستقلال تلك الجمهوريات استقلالاً ذاتيا، وهذا يعنى أنها تمارس على أراضيها سلطة الدولة فيما عدا الشئون الخارجية التي كانت تتولاها الهيئات العليا في الاتحاد السوفييتي، وضمان حقها في استخدام لغتها الوطنية، وإنشاء مجلس سوفييت القوميات، وتمثل فيه جمهوريات الاتحاد على قدم المساواة.

وكان نظام الحكم في الاتحاد السوفييتي نظاما هرميا، قاعدته الكبرى صغار الفلاحين، والعمال، والمثقفون، منضمين في لجان أو مجالس محلية يدعى كل منها سوفييت، ومعناها باللغة الروسية مجلس . وتنتخب سوفيتيات القرى مندوبيها في سوفيتيات المراكز، ويبعث سوفيتيات كل مركز بمندوبين إلى سوفيتيات الأقاليم (المحافظات) وتختار هذه مندوبيها في سوفييت الجمهورية، ويختار هذا المجلس ممثليه في المؤتمر السوفييتي العام للاتحاد السوفييتي الذي يعتبر قمة الهرم الانتخابي السوفييتي.

والواقع أن لينين بعد أن استولى على السلطة في روسيا ثم في الاتحاد السوفييتي، كان من أوائل الذين اعتنقوا آراء كارل ماركس، ولكنه اختلف معه في الوسائل التي يمكن أن تؤدى إلى الثورة، وحاول أن يطور آراء ماركس من نظرية فلسفية خيالية إلى نظام واقعي للحكم. كذلك رأي لينين أنه من الصعوبة بمكان، أن يقوم الشعب كله بالثورة بمحض إرادته، وعلى ذلك يجب أن تقوم الثورة على يد فئة منظمة قليلة العدد،

يتزعمها المتحمسون للفكر الشيوعي. ولكن لم يلبث أن تبين في أول مرحلة من مراحل التطبيق العملي مدى الهوة التي تفصل بين النظرية الماركسية ومفهومها الخيالي، وبين التطبيق العملي في عناصره المادية المحسوسة، فبدأ لينين يعمل على إقامة «ديكتاتورية العمال المؤقتة» كنظام تتبعه روسيا في فترة الانتقال من النظام الرأسمالي إلى الشيوعية. ورغم ذلك فإن لينين كان يرى أن دور هؤلاء العمال والذين كان يحكم باسم ديكتاتوريتهم لم يأت بعد . لأنهم - كما قال - جهلة وغير مدربين، وليسوا أكفاء للقيام بأعباء الديكتاتورية الحكومية، فقد أثرت على نفوسهم تلك القرون الطويلة التي رزحوا أثناءها تحت نير الرأسمالية، وعلى ذلك لم يكن من المعقول - في رأيه - أن يوكل إليهم الحكم في هذه الفترة، بل تتولى هذه المهمة عنهم صفوة من جماعة البلشفيك. وقد قال ماركس ذات مرة مخاطبا العمال «عليكم أن تجتازوا خمس عشرة سنة أو عشرين أو خمسين سنة، من حروب أهلية ومعارك في النطاق العالمي لا لتغيروا العلاقات القائمة فحسب، بل ولتغيروا أنفسكم كذلك، ولتصبحوا أكفاء للسيادة السياسية».

وهكذا تطورت فكرة الشيوعية الروسية من «دكتاتورية العمال والفلاحين»إلى «ديكتاتورية الصفوة الممتازة» كضرورة مؤقتة لتحقيق ديكتاتورية العمال الاشتراكية. ومع مرور أكثر من خمسين سنة التي نادى بها كارل ماركس، لم يجد لينين أن العمال أنفسهم جديرون بالحكم، ولكن الضرورة المؤقتة ظلت حقيقة ثابتة، وتحكمت تلك الصفوة الممتازة في شئون الدولة منذ قيام الاتحاد السوفييتي حتى سقوطه.

كما أن الديكتاتورية في الاتحاد السوفييتي لم تكن لتلك الجماهير الكادحة، ولكنها تركزت في الحزب الشيوعي، فهو القوة القائدة للمجتمع السوفييتي، والطليعة المثقفة والمسلحة بالنظرية الماركسية اللينينية.

وتتمثل الديكتاتورية الشيوعية أيضا في تحكم الحكومة السوفيتية في حرية العمل، وحرية الصناعة، وحرية البحث. فهي التي تفرض على المصانع أنواع الصناعات المطلوبة، وعلى الفنانين أنواعا خاصة من الفنون، مع أن الفنون عملية نفسية وجدانية شخصية، كما كانت تفرض على التلاميذ تربية قومية معينة وموجهة، بحيث كانت

توجه التربية في الاتحاد السوفييتي وجهة شيوعية، لأن الماركسية هي الفلسفة الرسمية التي كان معترفا بها في جميع مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وكانت الحكومة السوفيتية هي التي تمتلك وتسيطر على أجهزة الإعلام من صحافة إلى إذاعة وغيرها. كما أنها وجهت الأعمال المسرحية والمؤلفات الأدبية وغيرها.

أما من الناحية الاقتصادية، فإن حكومة الاتحاد السوفييتي سيطرت وامتلكت كل وسائل الإنتاج والتوزيع، فالتجارة الخارجية كانت تحتكرها الدولة، وتديرها وزارة التجارة الخارجية، وتقوم بعمليات التجارة الخارجية منظمات للتصدير والاستيراد، وكانت كل منظمة تهتم بفئة معينة من البضائع. (٤٦)

واتبعت حكومة الاتحاد السوفييتي في الشئون الزراعية نظاما جديدا، فالمزارع المشتركة أو الجماعية التي تستغلها جماعات تعاونية من الفلاحين، كان عليها أن تبيع للحكومة نصف محصولها بالسعر الذي تحدده الحكومة، أما ما تبقى من المحصول فيقسم بين الفلاحين، بنسبة العمل الذي أداه كل منهم. وإلى جانب تلك المزارع المشتركة (الكولخوزات) نوع آخر يتبع الدولة مباشرة، وهو مؤسسات زراعية اشتراكية، أطلق على كل منها (السوفخوز) والسوفخوزات التابعة للدولة كانت تختص بزراعة الحبوب والقطن وتربية الماشية، وزراعة الأشجار المثمرة والشاي وغير ذلك. وتمتاز بأنها لا تقصر نشاطها على فرع واحد من الزراعة، بل تقوم بزراعة محاصيل مختلفة . فسوفخوزات الحبوب مثلا تخصص أمكنة واسعة لتربية الماشية. وتغل تلك المؤسسات الحكومية دخلا كبيراً. (٤٧)

ولم تعد الزراعة وحدها مصدر الثروة في الاتحاد السوفييتي بل تقدمت فيها الصناعة وجرى التصنيع مستندا إلى ملكية الدولة لوسائل الإنتاج.

وقد استمد ستالين - الذي خلف لينين سنة ١٩٢٤ - سلطاته وقوته من مركزه كسكرتير الحزب الشيوعي مدة طويلة، كما كان عضو المكتب السياسي الذي كانت سلطته تعلو سلطة مجلس الوزراء. وعندما مات لينين قام في داخل الحزب الشيوعي نزاع بين ستالين وتروتسكي.

وكان لينين قد عين ستالين سكرتيرا للحزب، ومنذ ذلك الوقت أخذ يعمل على إظهار نفسه ليكون الرجل الثاني بعد لينين. ولكن كانت أمامه عقبة كؤود، هي شخصية تروتسكي الذي كان اسمه يقترن دائما باسم لينين عندما تذكر الثورة الروسية. وكان الجميع في خارج الاتحاد السوفييتي يعتقدون أن تروتسكي هو الخليفة الطبيعي للينين في الحكم.

إلا أن وفاة لينين أعقبها خلاف في السياسة الداخلية والخارجية في داخل الحزب الشيوعي بين أنصار ستالين وأنصار تروتسكي، وانتهى الأمر بهزيمة تروتسكي في مؤتمر الحزب الشيوعي الذي عقد في أواخر عام ١٩٢٤، ثم تقرر عزله كوزير للحربية، كما طرد من مجلس العمل والدفاع، كما طرد جميع أنصاره من الجيش والبحرية.

على أن تروتسكي وأنصاره ظلوا على موقفهم من معارضة سياسة اقتصار الثورة الشيوعية على الاتحاد السوفييتي، ومناداتهم بالعمل على تعميم الثورة في العالم، لأنه كان يعتقد أن من المستحيل على دولة شيوعية أن تعيش بجانب عالم رأسمالي. بينما كان ستالين يرى عدم ملاءمة الظروف للسعي إلى تدويل الشيوعية. وأخيرا انتهى الخلاف بانتصار وجهة نظر ستالين، وتقرر طرد تروتسكي من اللجنة المركزية للحزب في سنة ١٩٢٧، ثم نفيه من البلاد في سنة ١٩٢٩، وتبع ذلك سلسلة من الاتهامات والمحاكمات وجهت إلى زعماء البلشفيك القدامى للتخلص منهم، حتى يخلو الجو لستالين.

وعادت الاتهامات والمحاكمات مرة أخرى في سنتي ١٩٣٧، ١٩٣٨ واستمرت حتى عام ١٩٣٩ وحوكم أثناءها مئات من كبار العسكريين والمدنيين ورجال الكنيسة والوزراء السابقين، وصدرت أحكام عليهم إما بالسجن أو القتل، وكانت أخطر تهمة وجهت إليهم هي التآمر مع الأجانب ضد سلامة الوطن (٤٨)، وهكذا عاد الظلم مرة أخرى إلى روسيا بل كل الاتحاد السوفييتي، ولم يأمن أحد على مستقبله أو على أسرته، وتم تشريد آلاف من الأسر في سيبريا، أمام أي اتهام جائر، بل كان في استطاعة ضباط المخابرات في أي وقت، قهر المئات بل الآلاف، وعاد الحكم المطلق من جديد،

وانعدمت كل صور الديموقراطية، وتبخرت كل الكلمات عن ديكتاتورية الطبقة العاملة، وحكم البلاد العسكريون وعدد من أصحاب الياقات البيضاء، وعندما قامت الحرب العالمية الثانية، كان ستالين الحاكم المطلق في كل الاتحاد السوفييتي دون منازع.

الاتحاد السوفييتي والحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥)

مع بداية عام ١٩٣٥ عقدت اجتماعات متعددة للجنة المركزية كي تضع أمام المؤتمر التالي للسوفيت اقتراحات للدستور الجديد للاتحاد السوفييتي، مما يعكس التغييرات الاقتصادية والاجتماعية الكبيرة التي حدثت.

وفي يونيو ١٩٣٦ ظهرت مسودة الدستور الجديد في الصحف. وفي ٢٥ نوفمبر ١٩٣٦، فإن المؤتمر الثامن غير العادي لسوفييت الاتحاد السوفييتي انعقد في موسكو للتصديق على الدستور. وفي ٥ ديسمبر ١٩٣٦ توصل المؤتمر إلى الشكل النهائي لدستور الاتحاد السوفييتي، وأصبح هذا يوم الدستور في الاتحاد .[٤٩]

وبمقتضى الدستور الجديد، تأسس السوفييت الأعلى للاتحاد من مجلسين: سوفييت الاتحاد، وسوفييت القوميات. على أن ينتخب مواطنو اتحاد الجمهوريات السوفيتية وسوفييت الاتحاد على حسب الدوائر الانتخابية بمعدل نائب واحد عن كل ٣٠٠ ألف نسمة من السكان، وهو يمثل المصالح العامة لكل المواطنين بصرف النظر عن قوميتهم. أما مجلس سوفييت القوميات، فينتخب مواطنو الاتحاد أعضاءه على حسب الجمهوريات الاتحادية، والجمهوريات ذات الحكم الذاتي، والأقاليم القومية بمعدل ٢٥ نائبا عن كل جمهورية اتحادية، و ١١ نائبا عن كل جمهورية ذات حكم ذاتي، و ٥ نواب عن كل منطقة من المناطق التي تتمتع بالحكم الذاتي. ونائبا واحدا عن كل دائرة قومية. وبذلك يعبر مجلس سوفييت القوميات عن المصالح النوعية لكل ما في الاتحاد السوفييتي من أمم وقوميات.

ومع كل هذه النصوص الدستورية، والتي يبدو منها منح الجمهوريات المختلفة استقلالاً في شئونها الخارجية، إلا أنها في الواقع لا تستطيع أن تخالف السياسة العليا التي كانت ترسمها السلطات المركزية، وذلك لأن الحزب الشيوعي الشمولي كان

يسيطر سيطرة تامة على شئون الحياة في جميع أنحاء الاتحاد السوفييتي. وكان للحزب الشيوعي مجلس عام له لجنة مركزية. ولكن السلطة النهائية كانت في يد المكتب السياسي أي المجلس الأعلى للحزب، الذي يتألف من اثني عشر عضوا. كما تكونت في المجلس الأعلى لجنة الخمسة التي كان يتزعمها ستالين (٥٠)... وكان ستالين بالتالي هو الحاكم المطلق لكل الاتحاد السوفييتي، رغم وجود هذا الشكل الدستوري الخاوي من المضمون. واختفت العبقرية الروسية السابقة في الكتابات الأدبية والروائية، وحلت كتابات تمليها الحكومة السوفيتية، وكانت كلها بالتالي تكيل المديح للحكم القائم، وبالتالي كانت خالية من أي مضمون فكرى إنساني حقيقي، وساد نوع من الإذعان والخضوع لدى مواطني الاتحاد السوفييتي بعامة، لأن أي محاولة جادة للتعبير عن أفكار مضادة للنظام القائم، كان من المعروف سلفا نتائجها، والتي كانت تتلخص إما في التصفية الجسدية، أو النفي إلى سيبريا.

ويعتبر ظهور النازية في ألمانيا السبب الرئيسي في قيام الحرب العالمية الثانية. وقد بدأ الحكم النازي في ألمانيا منذ تولى أدولف هتلر منصب مستشار ألمانيا في ٣٠ يناير ١٩٣٣، وقد مهدت الظروف التي مرت بها ألمانيا منذ نهاية الحرب العالمية الأولى إلى وصول هتلر إلى هذا المنصب. (٥١)

وقد سبق اندلاع الحرب العالمية الثانية أزمات متتالية هي الأزمة النمساوية والأزمة التشيكوسلوفاكية، أما الأزمة الأخيرة فكانت الأزمة البولندية، والتي اندلعت بسببها الحرب العالمية الثانية.

والواقع فإن هتلر بعد أن أعاد تسليح ألمانيا، وتخلص من معاهدة فرساي والتي عقدت بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، اتجه إلى السيطرة على أوروبا، وتعتبر النمسا التجربة الأولى للنازية خارج ألمانيا. ففي ١٢ مارس ١٩٣٨ عبرت القوات الألمانية الحدود النمساوية، ودخل هتلر النمسا صباح نفس اليوم، وخطب في الجموع المتحمسة في مدينة لينز معلنا ضم النمسا إلى الدولة الألمانية.

وقد حاول الاتحاد السوفييتي الوقوف في وجه هذا التوسع الألماني، فأرسل في ١٧ مارس ١٩٣٨ مذكرة إلى الدول يحذر من الخطر الذي سيهدد تشيكوسلوفاكيا، وذلك

بعد الاحتلال الألماني للنمسا، وقد أعرب الاتحاد السوفييتي عن استعداده للعمل الجماعي الدولي لإيقاف الاعتداءات الألمانية. ولكن لم تتفق الدول الكبرى على موقف موحد تجاه عمليات التوسع الألماني.

وكانت تشكوسلوفاكيا قد ضمت - بعد عام ١٩١٩ - إلى جانب القومية التشيكية قوميات مختلفة كالسلوفاك والمجريين وغيرهم، ولكن كانت أهم هذه القوميات القومية الألمانية، وكانوا حوالي ثلاثة ملايين ونصف قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية.

وكانت للأقلية الألمانية في تشيكوسلوفاكيا - في إقليم السوديت - امتيازات خاصة، فكان لها مدارسها وجامعاتها، وكان واضحا أن ألمان السوديت يتطلعون إلى الاندماج نهائيا في ألمانيا.

وقد وضحت المصاعب الحقيقية لتشيكوسلوفاكيا في مايو ١٩٣٨ أي بعد شهرين من ضم ألمانيا للنمسا، فقد أخذت ألمانيا منذ أبريل ١٩٣٨ تحرك قواتها صوب الحدود التشيكوسلوفاكية. وفي أول أكتوبر ١٩٣٨ عبرت قوات ألمانيا الحدود، وضمت إقليم السوديت، وفي يوم ١٥ مارس ١٩٣٩ تم إرغام الحكومة التشيكوسلوفاكية على توقيع وثيقة تسليم تشيكوسلوفاكيا إلى ألمانيا. وقد احتجت الولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفييتي على ضم ألمانيا لتشيكوسلوفاكيا وكان واضحا بعد ذلك أن الضحية المرتقبة هي بولندا، وفي أول سبتمبر ١٩٣٩ بدأ الهجوم الألماني عليها، وأطلقت الطائرات الألمانية قنابلها على وارسو، وهكذا اندلعت الحرب العالمية الثانية بإعلان إنجلترا وفرنسا الحرب على ألمانيا. (٥٢)

لقد كانت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) في بدايتها تمثل صراعا بين قوتين غير متكافئتين، القوة الألمانية الضاربة، السريعة الحركة، والهجومية، والقوة الإنجليزية الفرنسية المعتمدة على الدفاع، وإلى جانبها الدول التي فرضت عليها الحرب فرضا، فلم تكن مستعدة لمواجهة ثقل القوة الألمانية المفاجئة لها ونعني بذلك الدنمرك والنرويج وهولندا وبلجيكا .(٥٣)

وبعد اكتساح القوات الألمانية لفرنسا، اتجهت ألمانيا إلى إنجلترا، ووجهت هجماتها إلى السفن البريطانية التجارية، واعتبارا من ٧ سبتمبر ١٩٤٠ قامت ألمانيا بهجمات نهارية على لندن استمرت حتى نهاية أكتوبر . وكانت خطة ألمانيا هي إبادة الطائرات البريطانية، ولكن صمدت بريطانيا للهجوم الألماني، وفقدت ألمانيا الكثير من الطائرات.

وكانت خطة هتلر هي هزيمة بريطانيا ثم إجبارها على الاستسلام عن طريق الغزو الشامل بعد الهجمات الجوية المتصلة، ولذلك شدد ضرباته الجوية ليلا نهارا على لندن.

ولكن بريطانيا لم تستسلم، بل قامت بمهاجمة المدن الألمانية بالطائرات البريطانية المقاتلة، وخاصة المنشآت الصناعية في إقليم الرور والموانى. وفي ٢٢ أغسطس ١٩٤٠ ضربت الطائرات البريطانية برلين. وهكذا لم تستطع ألمانيا أن تجبر بريطانيا على الاستسلام.

وفي غضون ذلك الوقت كان الاتحاد السوفييتي قد استولى - بموافقة ألمانيا - على بسارابيا وشمال بوكوفينا من رومانيا، ثم ضم استونيا ولاتفيا ولتوانيا - دول البلطيق - ولكن حدث ما عكر العلاقات بين ألمانيا والاتحاد السوفييتي، فقبل الهجوم الألماني على يوغوسلافيا بيومين، أبلغت موسكو السفير الألماني بها بأنها قد وافقت على عقد معاهدة صداقة وعدم اعتداء مع يوغوسلافيا. ومنذ ربيع ١٩٤١ وقعت حوادث على الحدود، واشتكت كل من الدولتين، ولذلك قدمت موسكو مطالبها إلى ألمانيا وهي وجوب اعتبار فنلندا داخلة ضمن منطقة النفوذ السوفيتية، وعقد اتفاقية خاصة بمستقبل بولندا، والاعتراف بمطالب الاتحاد السوفييتي في رومانيا وبلغاريا. ولم يوافق هتلر على هذه المطالب. (٥٤)

وهكذا شعر هتلر بأنه في مركز القوة في أوروبا وأن الوقت قد حان لتحقيق هدفه الكبير بالهجوم على الاتحاد السوفييتي. أما ستالين فلم يكن على استعداد تام لتلك المجابهة على الرغم من التحذيرات الكبيرة التي كان يسوقها إليه ونستون تشرشل

رئيس الوزارة البريطانية في ذلك الوقت. وكان ستالين حتى شهر يونيو ١٩٤١ يرفض أن يعقد أي تحالف مع بريطانيا، ولم يحاول أن يثير أي مشكلة مع الألمان. ولكن بمرور الزمن، بدأ ستالين يقتنع بأن الهجوم النازي على روسيا وكل الاتحاد السوفييتي أصبح لا مفر منه إن عاجلا وإن آجلا، وأن على روسيا أن تستعد له. وهكذا ضاعف ستالين من الإنتاج الصناعي الحربي، ونقل الصناعات الحيوية من مصانعها في غرب روسيا إلى أماكن آمنة في منطقة الأورال، وأخيرا رأي أن يتولى بنفسه رئاسة حكومة الاتحاد السوفييتي في مايو ١٩٤١.

وعندما بدا هتلر في تنفيذ مخططه في غزو روسيا، لم يكن هدفه واضحا، ولكن قيل في ذلك أنه كان يرى أن غزو إنجلترا لا يمكن أن يتم بنجاح في الوقت الذي يرجح فيه أن روسيا قد تنتهز الفرصة لضربه من الخلف. وقيل أيضا أن عجزه عن كسب معركة بريطانيا جعل جهوده تتحول إلى حرب استنزاف ضده، نتيجة للحصار الذي فرضته بريطانيا، مما جعل ألمانيا محرومة من المواد الغذائية والمعادن والبترول، وبما أن الاتحاد السوفييتي يمتلك كل هذه الموارد، فإن الغزو الألماني لروسيا يستطيع تحقيق توفير كل الاحتياجات الألمانية نتيجة للحصار البريطاني الذي عزل ألمانيا عن العالم. كما شجع هتلر على الإقدام على الغزو ما منى به السوفيت من هزائم في حربهم ضد فنلندا مما جعله يسيء تقدير قوة الجيش الأحمر، ويعتقد أن السوفيت لن يستطيعوا الصمود أمام القوات النازية.

وعلى أية حال، فقد وضعت القوات النازية في يونيو ١٩٤١ على أهبة الاستعداد في الجبهة الشرقية، ففي الشمال أرسلت فرق المدفعية والدبابات إلى فنلندا، وفي الجنوب أعطيت الأوامر لرومانيا لحشد قواتها على الحدود الروسية، وتحولت الجيوش الألمانية من الاتجاه غربا إلى الاتجاه ناحية الشرق. وفجأة وبدون سابق إنذار، أمر هتلر قواته في ٢٢ يونيو ١٩٤١ باجتياح الحدود الروسية (السوفيتية) من عدة جبهات، وأعلن هتلر للشعب الألماني أن ذلك الغزو الجديد إنما يستهدف تحرير أوروبا كلها من خطر الشيوعيين، وإنقاذ الشعب الألماني من أخطر عدو يتربص به، ويستعد سرا للانقضاض عليه . وقال هتلر أنه لا يسعه الانتظار طويلا لئلا يستكمل السوفيت

استعداداتهم، ووصلت معلومات سرية بأن السوفيت يقومون بإجراء تدريبات عسكرية تستهدف البدء باحتلال بروسيا الشرقية، وأن القوات السوفيتية يزداد حجمها في غاليسيا. لذلك قرر هتلر أن يسبق الهجوم الروسي الذي تخيله بهجوم خاطف، وقد خالفه بعض القادة الألمان العسكريين بسبب امتداد الجبهة الروسية على مسافة ١٨٠٠ كيلو متر، ولسوف تزداد عرضا كلما ازداد التقدم نحو الشرق، لأن الروس يعملون دائما على استدراج المهاجم إلى الداخل بالانسحاب السريع نحو الشرق، إلا أن هتلر لم يصغ لهذه الاعتراضات، ووضع خطة تستهدف تطويق القوات الروسية أينما وجدت لقطع تراجعها نحو الشرق، ثم أمر بالهجوم.

واستطاع الألمان في يومين اثنين تحطيم ألفي طائرة روسية وهي رابضة على الأرض في مطاراتها، وكانت تشكل ثلث الأسطول الجوى الروسي، واتجهت ثلاثة طوابير مؤلفة من ثلاثة ملايين جندي ألماني نحو كل من موسكو ولينينجراد وكيف، مكتسحين كل ما أمامهم من وسائل دفاعية.

وفي أوائل الشتاء (١٩٤١) كانت القوات الألمانية تحاصر لينينجراد دون الاستيلاء عليها بسبب صمود القوات الروسية، واشتراك المقاومين المسلحين من عمال المصانع في الدفاع، يؤيدهم كل السكان في مقاومة مستميتة باسلة أوقفت تقدم الألمان نحو المدينة.[٥٥]

وبلغت أعداد المقاومة الشعبية في موسكو نحو ١٢٠,٠٠٠ وفي لينينجراد نحو ١٦٠,٠٠٠ رجل، وهكذا لم تكن القوات السوفيتية وحدها في الميدان. وكان الموقف العام أن الألمان لم يقدروا قوة السوفيت جيدا.

وفي خريف ١٩٤١ كان موقف الاتحاد السوفييتي خطيرا جدا، وفي نوفمبر ١٩٤١ احتلت القوات الألمانية مساحات كبيرة من الاتحاد السوفييتي وكان يسكنها قبل الغزو الألماني نحو ٤٠٪ من السكان، وتمد الدولة بنحو ٦٣٪ من حاجتها من الفحم، و٥٨٪ من الصلب، وذلك بعد أن دفعت القوات السوفيتية إلى الداخل. وحاولت القوات الألمانية توجيه ضربات نهائية للقوات السوفيتية قبل حلول الشتاء واحتلال موسكو ولينينجراد. وتركزت القوات الألمانية الرئيسية قرب ضواحي موسكو. ومع نهاية

سبتمبر كان الجنرال فون بوك Von Bock قائد القوات الألمانية المركزية مسيطرا على قوات هائلة تقدر بثمانين فرقة، منها ١٤ فرقة دبابات و٨ فرق مصفحة، هذا بالإضافة إلى القوات الجوية والمدفعية والمشاه، وكان هذا الحجم أكبر مما لدى السوفيت.

ووضع اسم (العملية تيفون) Operation Typhoon كشفرة للعملية الألمانية الخاصة بالاستيلاء على موسكو في خريف ١٩٤١، ووضعت الخطة للاستيلاء على موسكو بهجوم من ثلاث جهات.. من الشمال عبر كالينين Kalinin وكلن Klin ودميتروف Dmitrov، ومن الجنوب عبر أورل Orel وتولا Tula وكاشيرا Kashira، ومن الغرب عبر فيازما Vyazma وموزهيسك Mozhaisk وفولوكولامسك Volokolamsk وبعد وصول إمدادات ألمانية أخرى، فإن القائد الأعلى الألماني أصدر أوامره بالهجوم العام ليلة ١٥، ١٦ نوفمبر . واقتربت الدبابات الألمانية أكثر وأكثر من العاصمة - موسكو -، ووقع قتال رهيب وسط المساكن الصيفية لأهل موسكو على مشارف المدينة، وكانت المرحلة حرجة لكل الأمة السوفييتية.

ولقد واجهت القوات الألمانية خسائر فادحة في الفترة من ١٦ نوفمبر إلى ٥ ديسمبر ١٩٤١، ففقدت ٥٥ ألف قتيل و ١٠٠ ألف جريح. كما تم تدمير ٧٧٧ دبابة و ٣٠٠ من قطع المدفعية الثقيلة.

وفي غضون هذا الوقت أرسل القائد العام السوفييتي قوات أخرى إلى ميادين العمليات حول موسكو. ومع بداية ديسمبر ١٩٤١، أمكن للقوات المدافعة عن موسكو القيام بهجوم مضاد على القوات الألمانية. وفي صبيحة يوم ٥ ديسمبر فإن قوات المدفعية السوفيتية بدات إطلاق القذائف على طول شواطئ الفولجا المتجمدة في جبهة كالينين .Kalinin وبعد تحضيرات المدفعية الثقيلة عبرت قوات المشاه الجليد إلى مواقع الألمان. وفي ٦ ديسمبر بدأت القوات السوفيتية من الجهة الغربية ومن الجناح الشرقي من الجهة الجنوبية عمليات الهجوم المضاد، وقاست القوات الألمانية من خسائر فادحة. وهكذا نجح السوفيت مع ربيع عام ١٩٤٢ في دفع القوات الألمانية إلى نحو ٣٥٠ كيلو مترا من مواقعهم الأولى حول موسكو.

لقد كانت معركة موسكو صعبة جدا وخصوصا في مراحلها الأخيرة وقد كتب الماريشال زوكوف Zhukov عن ذكرياته عن هذه المعركة «لقد كان صعبا على الجندي والقائد مواجهة هذه المعركة، ففي الفترة من ١٦ نوفمبر إلى ٩ ديسمبر ١٩٤١ عندما كان القتال عنيفا جدا كنت أنام أقل من ساعتين في اليوم وأقل من ذلك» لقد كافحت موسكو كفاحا بطوليا، ولم تستسلم رغم قلة المؤن، لأن الكفاح البطولي للجيش والشعب أثمر النصر في النهاية. أما كفاح ستالينجراد فكان أيضا كفاحا بطوليا. فقد كان الدفاع عن المدينة أكثر تعقيدا بحقيقة أن المدينة تمتد على طول ٦٠ كيلو مترا على طول الضفة الغربية لنهر الفولجا، وعلى سبيل المثال فإن محطة السكة الحديد قد تبادلها السوفيت والألمان ثلاث عشرة مرة. وحاولت القوات الألمانية الاستيلاء على المدينة في سبتمبر ١٩٤٢، واحتلت بالفعل معظم أجزاء المدينة.

وفي بقية المدينة كان الجيش الثاني والستين السوفييتي بقيادة الجنرال شويكوف Chuikov قد اتخذ مواقعه أمام الألمان، وشكل هذا الجيش جزءا من الجبهة الروسية بقيادة الجنرال الروسي يريمنكو Yeremenko واستمرت المواجهات الدموية ليلا ونهارا لمدة ١٢٥ يوما وفي شوارع المدينة نحو ٦٨ يوما .(٥٦)

والواقع فإن ملحمة دفاع ستالينجراد كتجربة عملية لكفاح القوات والمقاومة الشعبية تعتبر المثال الجيد للكفاح في داخل المدن والمناطق المبنية.

وهكذا حلت الهزيمة بالقوات الألمانية في ستالينجراد، ولكن الحرب استمرت بعد ذلك لنحو ثلاث سنوات لأن القوات الألمانية بعد موقعة ستالينجراد كانت لا تزال تحتل مساحات شاسعة في أوروبا والاتحاد السوفييتي نفسه، واحتاج الأمر لهذه المدة الطويلة نسبيا حتى يمكن دحر قوات المحور نهائيا.

ولابد في هذا الإطار أن نرصد أن الولايات المتحدة لأمريكية، والتي دخلت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤١ قد دعمت الكفاح السوفييتي تماما ضد الغزو الألماني، فقد حمل خط النقل بالسيارات ٤٠,٠٠٠ طن من مواد الحرب من الخليج العربي وعبر إيران إلى روسيا، في حين نقل الخط الحديدي الإيراني ٤ مليون طن من الإمدادات، وسلمت جمعيها إلى الاتحاد السوفييتي. (٥٧)

وهكذا وبالمعاونات الأمريكية أمكن للاتحاد السوفييتي إنهاء الاحتلال الألماني لأراضية، ولم ينته عام ١٩٤٤ إلا واضطرت الجيوش الألمانية إلى التقهقر عن كل ما استولت عليه، وانحصرت في حدودها الألمانية، وطوق الحلفاء ألمانيا، وفي نفس الوقت تقدمت القوات السوفييتية إلى الأراضي الألمانية، ووقع الهجوم على برلين في ١٦ أبريل ١٩٤٥، واستسلمت العاصمة الألمانية للقوات السوفيتية في ٢ مايو بعد معارك رهيبة في الشوارع والمنازل، وانتحر هتلر قبل سقوط برلين بيومين، واستسلمت بعد ذلك الجيوش الألمانية في شمال غرب ألمانيا وهولندا والدنمرك.

وفي ٧ مايو ١٩٤٥ كان الاستسلام النهائي للقوات الألمانية، ووقع رئيس أركان حرب الجيش الألماني وثيقة الاستسلام. (٥٨)

الحرب الباردة

لقد تعاون الحلفاء في الحرب العالمية الثانية ضد المارد الألماني، ولكن مع نهاية الحرب استحال التوفيق بين حلفاء الأمس (الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة) لأن الولايات المتحدة كانت تمثل قمة النظام الرأسمالي بينما كان الاتحاد السوفييتي يمثل قمة النظام الشيوعي، وهكذا اندلعت العداوة الكامنة بين الدولتين فيما سمى بالحرب الباردة. كما تبين أنه لا أمل في عقد تسوية عالمية ترتكز على اتفاق يتم بين ما سمى بالكتلة الغربية الديموقراطية وبين الكتلة الشيوعية الشرقية. وأصبح في الوقت نفسه لا أمل في الوصول إلى اتفاق على توحيد ألمانيا، وأصبحت الكتلتان تنظران إلى ألمانيا كفراغ سياسي تسارع كل كتلة إلى ملئه. واندفعت كل منهما إلى داخل ألمانيا حتى واجه كل منهما الآخر.

فمن الشرق سيطر الاتحاد السوفييتي على الثلث الشرقي من ألمانيا والقطاع الكبير الذي احتله من النمسا، بل وتجاوز ذلك إلى السيطرة على الدول الشرقية الواقعة على حدوده الغربية، وهي الدول التي حررها من الاحتلال النازي، وهي بولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ورومانيا وبلغاريا ويوغوسلافيا وألبانيا . ونتيجة للنفوذ والتأثير السوفييتي، تأسست في تلك الدول حكومات شيوعية، وتكون منها جميعا - فيما عدا يوغوسلافيا - كتلة شيوعية تسير في فلك الاتحاد السوفييتي.

وعلى الجانب الآخر وقفت الدول الثلاث المتحالفة - الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا - تحتل قواتها القطاعات الأخرى من ألمانيا . وقد وحدت هذه الدول سياستها، ولكن كانت للولايات المتحدة الكلمة العليا والنفوذ الغالب في ذلك التحالف. وكان الأمريكيون وحلفاؤهم يظنون في مبدأ الأمر أن حلفاءهم السوفيت سيعملون معهم في زمن السلم كما عملوا أيام الحرب، ولكن السوفيت كانوا يعلمون بمدى التناقض بين نظامهم السياسي والمثال الغربي. وعمد الاتحاد السوفييتي والدول المتحالفة معه إلى وضع حاجز يحجب أوروبا الشرقية عن الغرب كله، ذلك الحاجز الوهمي الذي أطلق عليه الغربيون فيما بعد الستار الحديدي.

وظهر بأجلى بيان أن العالم أصبح يتزعمه قوتان: الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي. ولم تعد أوروبا الغربية كما كانت سابقا مركز القوة الدولية. وقد قفز الاتحاد السوفييتي إلى مركزه العالمي نتيجة الثورة الصناعية التي قادها الزعماء السوفيت بعد نجاح الثورة الشيوعية، وساعدهم على ذلك ثلاث خصائص هي أساس القوة في التاريخ المعاصر: المساحة الضخمة المتصلة وحجم السكان الكبير، والموارد الطبيعية الهائلة. ومع أن الاتحاد السوفييتي كان مجتمعا متعدد العناصر، ومتعدد القوميات، فإن حكومته استطاعت تنمية هذه القوميات والحضارات المحلية وصيانتها بدلا من كبتها، ومنحتها نوعا من الاستقلال الذاتي والحكم المحلى، رغم أن الروس أنفسهم سيطروا عدديا وحضاريا على الأجناس الأخرى التي يضمها الاتحاد السوفييتي.

أما الولايات المتحدة الأمريكية، فقد خرجت من الحرب العالمية الثانية وهي أغنى وأقوى دولة في العالم كله، بينما تأثرت الدول الأوروبية بتلك الحرب إلى حد كبير، فتصدعت اقتصادياتها وضعفت قوتها، في الوقت الذي تضاعفت فيه ثروة الولايات المتحدة بتضاعف إنتاجها الصناعي، وزاد النقد المتداول فيها ثلاثة أضعاف. أما في السياسة الخارجية فقد تزعمت الولايات المتحدة العالم الغربي، وأخذت على عاتقها مهمة الحد من الخطر الشيوعي، ومكافحة التغلغل الروسي، وحماية كل الدول التي تعادى الشيوعية. وبموجب برنامج النقطة الرابعة تعهدت الولايات المتحدة بمساعدة من سمتهم بالشعوب الحرة في العالم. (٥٩)

وقد ظهرت خلافات أدت إلى التوتر في العلاقات الدولية، وتمثلت تلك الخلافات في عدة مناطق، ففي إيران اشتد التوتر عندما تلكأت القوات السوفيتية عدة شهور في الجلاء، تدعيما لحكومة شيوعية كانت قد تأسست في أذربيجان الإيرانية، وشكلت جمهورية انفصالية عن إيران وقد اشتكت إيران إلى الهيئة العامة للأمم المتحدة ضد تدخل الاتحاد السوفييتي، وأضافت الدول الغربية إلى موضوع أزمة أذربيجان تردد الجيش الأحمر في الجلاء عن إيران طبقا لمعاهدة عقدت سنة ١٩٤٢، ونصت على جلاء القوات السوفيتية عن إيران خلال ستة أشهر من انقضاء الحرب العالمية الثانية، واصبح السوفيت عرضة للهجوم من المجتمع الدولي. ولكن التدخل الأمريكي، وثورة القبائل الإيرانية أمكنها وضع نهاية للجمهورية الشيوعية التي قامت في إقليم أذربيجان الإيراني، وما تلا ذلك من انسحاب القوات السوفيتية عن إيران. (٦٠)

كما اشتد التوتر على الحدود التركية مع الاتحاد السوفييتي، عندما طالب الأخير صراحة بتعديل الحدود، والسماح له بالسيطرة على المضايق. وفي شمال اليونان حدث توتر آخر بسبب الصراع الدامي بين الحكومة ضد الجماعات الشيوعية التي اتخذت لها قواعد في بلغاريا ويوغوسلافيا وألبانيا. ثم التوتر الذي حدث في تريستا بين يوغوسلافيا وإيطاليا، وأهم من ذلك كله شدة التوتر الذي كان سائدا على طول خط الحدود في ألمانيا بين السوفيت والحلفاء الغربيين.

ولعل أعجب ما في الأمر أن الحلفاء لم يضعوا سياسة واضحة لألمانيا عندما انتهت الحرب، وكل ما فعلوه أنهم اتفقوا على تقسيمها إلى مناطق احتلال عسكرية، دون أن يتفقوا على الخطوات التالية. ففي مؤتمر بوتسدام الذي عقد سنة ١٩٤٥ كان الاتفاق قد تم على ضرورة احتفاظ ألمانيا بوحدتها تحت إشراف الولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفييتي، على شرط نزع سلاحها وحرمانها من صناعاتها الثقيلة حتى لا تعود إلى تهديد السلام. ولكن اتفاق بوتسدام كان مرهونا باستمرار التحالف الكبير Grand Alliance بين الاتحاد السوفييتي والحلفاء. أي أن وحدة الحلفاء ووحدة ألمانيا تحت السيطرة المشتركة مرتبطان اشد الارتباط، وبمجرد فصم الوحدة الأولى تصبح الوحدة الثانية أملا بعيد المنال.

وقد بدأ الخلاف يدب بين الحلفاء والاتحاد السوفييتي في ربيع عام ١٩٤٦، عندما أخذت الحكومة السوفيتية تتصرف في المنطقة التي تحكمها في ألمانيا بكل حرية دون الرجوع إلى اللجنة المشتركة التي تشكلت لتنسيق العمل، مما أضر أبلغ الضرر بوحدة ألمانيا الاقتصادية، وتغيرت نظرة الفريقين إلى الهدف من الاحتلال. وتطلع كل فريق إلى كسب ود الألمان. حتى أن بيرنز Byrnes وزير خارجية الولايات المتحدة صرح في سبتمبر ١٩٤٦ بأن الأمريكيين لن ينسحبوا من ألمانيا، وأن بلاده سوف تساعد الشعب الألماني على أن يعود ليأخذ مكانه بين شعوب العالم الحرة والمحبة للسلام. وقد تغير اتجاه الدول الغربية في شتاء ١٩٤٦ - ١٩٤٧ لسببين: أولهما سوء حالة الشعب الألماني وبؤسه بعد الهزيمة التي حلت به، وثانيهما ما اتضح من أن بعث الحياة في الاقتصاد الألماني ضروري لأوروبا الغربية، وأنه ما لم يتخل الحلفاء عن سياسة خنق ألمانيا اقتصاديا، فإن الشيوعية سوف تجد لنفسها طريقا ميسرا نحو غزو أوروبا الغربية كما فعلت بأوروبا الشرقية.

وهكذا وبالتدريج تغلب الخوف من الشيوعية والاتحاد السوفييتي على الخوف من ألمانيا، وبينما كان النظام الشيوعي يسير بسرعة في القطاع الشرقي من ألمانيا، أخذ الحلفاء الغربيون يحاولون إقامة نظام ديموقراطي رأسمالي لحكومة ألمانيا الغربية.

وما وافي عام ١٩٤٧ حتى أصبح تقسيم ألمانيا إلى قسمين مختلفين سياسيا واقتصاديا حقيقة واقعة، أحدهما يرتبط ارتباطا وثيقا بالاتحاد السوفييتي والثاني يرتبط بالولايات المتحدة.

وقد تميز عام ١٩٤٧ بحادثين كانا نذيرا بانتهاء فترة الانتقال، وبداية لتزايد مظاهر الحرب الباردة، وهما إعلان مذهب ترومان، ومشروع مارشال.

وقد بدأ مذهب ترومان عندما ازداد خطر انتشار الشيوعية في اليونان، وكانت إنجلترا قد أخذت على عاتقها أن تمد الحكومة اليونانية بالمال والسلاح لمكافحة الحرب الأهلية ضد الشيوعيين، ولكن في مارس ١٩٤٧ قررت الحكومة البريطانية أنه لم يعد في استطاعتها الاستمرار في هذا السبيل بسبب سوء حالتها الاقتصادية. وقد

انزعجت الولايات المتحدة من هذا القرار، لما قد يترتب عليه من نجاح الشيوعيين في قلب نظام الحكم في اليونان، ومن ثم تتسرب الشيوعية إلى دول حوض البحر المتوسط... وعندئذ طلب الرئيس الأمريكي ترومان من الكونجرس الموافقة على مد اليونان وتركيا بأربعمائة مليون دولار لمواجهة المد الشيوعي.

وبعد شهور قليلة أعلن مشروع مارشال، وكان الرئيس الأمريكي قد عين الجنرال مارشال وزيرا لخارجيته، ويتلخص المشروع في وجوب مساعدة الولايات المتحدة لدول أوروبا الغربية قبل أن ينهار اقتصادها، وفي الوقت نفسه حث مارشال الدول الغربية على القيام بوضع برنامج موحد لإنهاض بلادها اقتصاديا حتى يمكن للولايات المتحدة مساعدتها. ولم يستثن من دعوته دول أوروبا الشرقية، ولذلك هاجم الاتحاد السوفييتي مشروع مارشال فورا، وصرح مولوتوف - وزير الخارجية - بأن الاتحاد السوفييتي لا يرى في مشروع مارشال إلا نوعا من الاستعمار الجديد، أي استعمار الدولار الأمريكي، ومحاولة للتدخل في الشئون الداخلية للشعوب المستقلة. وبموجب هذا المشروع أنفقت الولايات المتحدة حوالي ١٢ مليار دولار في سبيل إعادة بناء اقتصاديات أوروبا الغربية.

ولما دعت بريطانيا وفرنسا إلى عقد مؤتمر في باريس لدراسة هذا المشروع، رفض الاتحاد السوفييتي الاشتراك فيه، بل وأمر حكومات دول أوروبا الشرقية إلا ترسل مندوبين عنها، وحتى تشيكوسلوفاكيا التي كانت قد أعلنت قبولها لمشروع مارشال، عادت تحت الضغط السوفييتي إلى العدول عن الاشتراك في المشروع.

وهكذا اتسع الخلاف بين الشرق والغرب، وفي خريف ١٩٤٧ أعلن الاتحاد السوفييتي عن تأسيس منظمة أطلق عليها الكومنفورم Cominform، وصدرت الأوامر للأحزاب الشيوعية في غرب أوروبا بأن تتخلى عن سياسة المهادنة والاعتدال عندما كان التحالف الكبير سائدا بين الاتحاد السوفييتي والغرب، وهكذا انتشرت المظاهرات العنيفة، والقلاقل في كل مكان. ولجأ الشيوعيون الآسيويون إلى حرب العصابات في الملايو وبورما وإندونيسيا حتى انقلبت الحرب الباردة إلى حرب ساخنة في كثير من أرجاء العالم.

ومن أهم أحداث تلك الفترة، ذلك الانقلاب الذي حدث في تشيكوسلوفاكيا في فبراير ١٩٤٨. وكانت تشيكوسلوفاكيا هي الدولة الوحيدة من دول المجال السوفييتي التي ظلت محتفظة بنظامها الديموقراطي حتى آخر عام ١٩٤٧، على الرغم من أن كل حكوماتها التي تولت الحكم في أعقاب الحرب العالمية الثانية ظلت تحرص على علاقاتها الوثيقة بالاتحاد السوفييتي، ولكن العلاقات الوثيقة لم تكن تكفي في نظر السوفيت لاعتبار تشيكوسلوفاكيا دولة صديقة يؤمن جانبها. لذلك صدرت الأوامر للشيوعيين التشيك بالقيام بالانقلاب المعروف في فبراير ١٩٤٨، وطبق النظام الشيوعي الكامل في البلاد منذ ذلك التاريخ. (٦١)

ومع منتصف عام ١٩٤٩ وضع الحلفاء الغربيون في منطقة نفوذهم في غرب ألمانيا نظاما لم يقره الاتحاد السوفييتي، وهو إحكام الصلة بين مناطق الاحتلال الغربي وبرلين الغربية، وسريان عملة ألمانيا الغربية في ذلك الجزء من برلين. ولذلك قرر الاتحاد السوفييتي فرض الحصار على برلين، وقطع طريق الاتصال بين سلطات الاحتلال الغربي وبرلين، حتى لا تنجح إقامة دولة ألمانية مستقلة مسلحة ومعادية للاتحاد السوفييتي. ولذلك قطعوا الطريق الذي تستخدمه السلطات الغربية للوصول إلى برلين، وحالوا دون وصول الطعام والغاز والكهرباء والضروريات الأخرى التي كانت تصل بانتظام من القطاع الشرقي لبرلين.

ولم تلجأ سلطات الاحتلال الغربية إلى استخدام القوة في فتح الطريق، بل فضلت استخدام الطريق الجوى لخرق الحصار السوفييتي. ووضعوا السوفيت في مأزق المعتدى إذا أطلقوا النار على طائرات الحلفاء الغربيين، وذلك في الوقت الذي بعثت فيه الولايات المتحدة بعدة أسراب من الطائرات المقاتلة إلى المطارات الحربية في إنجلترا لتدعيم القوات الأمريكية المسلحة هناك. وقد نقل السلاح الجوى الأمريكي والبريطاني ما بين عامي ١٩٤٨، ١٩٤٩ مليون ونصف مليون طن من الطعام والوقود والضروريات الأخرى إلى برلين، لسد حاجة السكان المدنيين والعسكريين في المناطق التي فرض السوفيت عليها الحصار. وهكذا نجح الحلفاء الغربيون في إفشال الحصار الروسي بعمل سلمى ودون مجابهة عسكرية.

وبعد إجراء الانتخابات في ألمانيا الغربية في شهر أغسطس ١٩٤٩، أعلن قيام جمهورية ألمانيا الاتحادية في ٢٠ سبتمبر، وتقرر أن تكون العاصمة بون، وظل القسم الشرقي من ألمانيا في قبضة الاتحاد السوفييتي والذي شكل فيه دولة ألمانيا الديموقراطية (الشرقية).

ولعل ظهور دولة الصين الشعبية (الشيوعية) والتي تأسست في أكتوبر ١٩٤٩ بعد انتصار الشيوعيين في الحرب الأهلية كان أخطر حادث بالنسبة للدول الغربية، التي اعتبرت الوجود الشيوعي في تلك المنطقة الشاسعة أمرا يهدد المصالح الغربية عامة، والولايات المتحدة على وجه الخصوص. ولكن الدول الغربية لم توحد سياستها تجاه الصين الشيوعية، فنجد بريطانيا تعترف بالنظام الجديد في الصين سنة ١٩٥٠، وأما فرنسا فقد رفضت الاعتراف بسبب ما كانت تقدمه الصين من المعونات إلى الثوار في الهند الصينية، والتي كانت تحت الاستعمار الفرنسي في ذلك الوقت. وفي الولايات المتحدة كان الرأي العام شاعرا بخيبة أمل كبيرة بسبب انهيار النظام الذي وضعه تشانج كأي شيك. وهو الزعيم الذي كان متحالفا مع الأمريكيين، الذين قدموا له كل وسائل العون العسكري والاقتصادي، إلى أن أجبر على الانزواء بحكومة عميلة للولايات المتحدة في جزيرة فورموزا، ووقف الأسطول الأمريكي يحول دون أي هجوم عليه.

ومهما يكن من أمر، فقد تغير موقف الولايات المتحدة في يونيو ١٩٥٠ عندما اندلع لهيب الحرب الكورية. وكانت كوريا قد تحررت من الحكم الياباني عام ١٩٤٥ بعد خمسة وثلاثين عاما من الاحتلال، ولكنها انقسمت إلى قسمين كوريا الشمالية التي احتلتها آنذاك القوات السوفيتية، وكوريا الجنوبية التي احتلتها القوات الأمريكية. ومزقت السياسة بين أبناء الوطن الواحد، وانقسمت كوريا إلى دولتين متعاديتين. ولكوريا أهمية استراتيجية عظمى لجيرانها الاتحاد السوفييتي واليابان والصين، ثم أصبح للولايات المتحدة بعد هزيمة اليابان مصالح هامة في تلك المنطقة تجعلها تهتم بها أبلغ الاهتمام، ولذلك أرسلت قواتها من اليابان لوقف الهجوم الذي قام به الكوريون الشماليون الشيوعيون في ٢٥ يونيو ١٩٥٠. واستطاعت الولايات المتحدة

بنفوذها أن تضمن تأييد هيئة الأمم المتحدة، ولكن ٩٠٪ من القوات المحاربة في كوريا كانت من الولايات المتحدة.

وفي سبتمبر ١٩٥٠ تقدمت تلك القوات باسم هيئة الأمم، فعبرت خط عرض ٣٨ درجة إلى كوريا الشمالية، وكان لإقدام هذه القوات على اختراق الخط الذي يحدد القطاعين أسوأ الأثر عند الصين الشيوعية، فقررت التدخل، وأرسلت قواتها لمساعدة كوريا الشمالية. واستطاعت القوات الشيوعية أن تحرز انتصارات عديدة على أعدائها، مما اضطر قوات الأمم المتحدة إلى التقهقر بغير انتظام نحو الجنوب.(٦٢)

والواقع فإن الاتحاد السوفييتي عانى كثيرا من تلك الحرب باعتبار مسئوليته عن الدفاع عن العالم الاشتراكي (الشيوعي) ولكن الصين قدمت معونات فائقة الأهمية للكوريين الشماليين، وحاربت فعلا ضد القوات الأمريكية.

وقد ظهرت نداءات في الولايات المتحدة نفسها تطالب بإيقاف هذه الحرب، ففي ربيع ١٩٥٢ قام دعاة السلام بمظاهرة كبرى ضد انغماس الولايات المتحدة في الحرب الكورية، واستخدامها للأسلحة المحظورة دوليا. كما اندلعت مظاهرات في دول العالم الاشتراكي ضد الممارسات القمعية الأمريكية في الحرب الكورية.

وخلال سنوات الحرب الثلاثة (١٩٥٠ - ١٩٥٣) خسر الأمريكيون وحلفاؤهم أكثر من مليون ونصف مليون قتيل ومن بينهم ٤٠٥,٠٠٠ أمريكي، كما خسروا ١٢,٢٢٤ طائرة حربية، و٥٦٤ سفينة حربية من أنواع مختلفة، ٣٢٥٥ دبابة وعربة مصفحة و٧٦٩٥ من قطع المدفعية الثقيلة، وتكلفت الولايات المتحدة نحو ١٦٥ مليار دولار من تكاليف الحرب.

وهكذا ونتيجة للدعم الصيني والسوفييتي لكوريا الشمالية، لم يكن من الممكن أن تستمر الحرب الى ما لا نهاية، وهكذا اتفقت الأطراف على إنهاء هذه الحرب طبقا لاتفاقية تم عقدها في هذا الصدد في بانمونجوم Panmunjom في ٢٧ يوليو ١٩٥٣.(٦٣)

وتستمر الحرب الباردة بين الكتلتين السوفيتية والغربية والأمريكية خصوصا حتى غطت مناطق كبيرة من العالم، وقد تكلفت الدولة السوفيتية مبالغ ضخمة في سبيل المواجهات مع الغرب، وتبنى السوفيت قضية تحرير العالم الخاضع للاستعمار تمهيدا لتحويله إلى النظام الشيوعي، وظهرت نظريات كثيرة في هذا الصدد. وكمثال على هذا الصراع لابد أن نشير إلى قضية الجلاء البريطاني عن مصر ومعركة تثبيت الاستقلال، فبعد عقد اتفاقية الجلاء في ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ بين مصر وبريطانيا، وجلاء آخر جندي بريطاني عن قاعدة قناة السويس في يونيو ١٩٥٦، وبعد صفقة الأسلحة التشيكية والتي حازت مصر بمقتضاها على كميات كبيرة من الأسلحة الثقيلة من الكتلة الشرقية، قام الرئيس المصري جمال عبد الناصر بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس في ٢٦ يوليو ١٩٥٦، وذلك بعد تقاعس البنك الدولي عن إعطاء مصر قرضا لبناء السد العالي، وبضغط أنجلو أمريكي. ودخلت مصر دوامة الحرب الباردة فالسوفيت يشايعون مصر والقوى الغربية مستاءة من تدفق الأسلحة السوفيتية على الإسكندرية، وهكذا وقع العدوان الثلاثي على مصر اعتبارا من ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦. وقد أصدر الاتحاد السوفييتي إنذارا في ٥ نوفمبر ١٩٥٦ على لسان بولجانين رئيس الوزراء إلى دول العدوان الثلاثي (بريطانيا وفرنسا وإسرائيل) أعلن فيه تصميم الحكومة السوفيتية على استخدام القوة للقضاء على العدوان. (٦٤)

وتتالت المشكلات بالنسبة لتداعيات الحرب الباردة بين السوفيت والأمريكيين، ففي يونيو ١٩٦١ اجتمع الرئيس الأمريكي كيندي مع الزعيم السوفييتي خروشوف في فينا، وصرح خروشوف لكنيدي بأن المشكلة الألمانية أصبحت على شفا الانفجار، وقد تناقضت وجهات النظر الأمريكية والسوفيتية بشكل حاد، ولكن هذا اللقاء فتح قنوات الاتصال بين الطرفين على أية حال، غير أن هذا لم يمنع كنيدي من أن يعلن التعبئة الجزئية بمجرد عودته إلى واشنطن . كما قام بأعمال التدعيم العسكري لمختلف القواعد الأمريكية في غرب أوروبا بسبب تهديدات خروشوف حول برلين، كما أعلن خروشوف زيادة الميزانية العسكرية للاتحاد السوفييتي بمقدار الثلث... إن الاتحاد السوفييتي خصص مئات الملايير من الروبلات لقضية التسليح لمواجهة الحرب الباردة، وكان ذلك من الأسباب التي أدت في النهاية إلى انهيار الاتحاد السوفييتي.

كما أثار خروشوف من جديد مشكلة برلين في جنيف في نفس العام (١٩٦١) واقترح أن القوات التي ترابط في برلين يجب أن تكون من الدنمرك أو النرويج أو بلجيكا أو هولندا، وكذلك من بولندا وتشيكوسلوفاكيا، وأن تعمل هذه القوات تحت علم الأمم المتحدة، وهو العرض الذي رفضته الولايات المتحدة في الحال. ورد الاتحاد السوفييتي بأنه سيضطر إلى تسوية الوضع في برلين بدون اشتراك القوى الكبرى. وازدادت الأمور حدة عندما تدخل السوفيت في مواصلات برلين الغربية.

وبعد سلسلة من الاتصالات بين خروشوف وكنيدي، أنهي خروشوف الموقف تماما حينما قام في ١٣ أغسطس ١٩٦١ بفصل شطري برلين بجدار كبير يقسم المدينة إلى قسمين. وهكذا سار كل قسم من الدولة الألمانية في طريق خاص يختلف عن القسم الآخر، وبدا أن إعادة الوحدة الألمانية كانت أمرا بعيد المنال. [٦٥]

ولكن سرعان ا تطورت المواجهة بين القطبين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة من برلين إلى كوبا، وإذا كان التاريخ الذي بدأت فيه الحرب الباردة هو موضع جدل بين المؤرخين، فليس ثمة نقاش حول التاريخ الذي اقتربت فيه الحرب لأن تتحول إلى حرب ساخنة، وذلك كان في ٢٢ أكتوبر ١٩٦٢، وهو التاريخ الذي كشف فيه عن وجود الصواريخ السوفيتية في كوبا، والأيام الستة التي تلته لحين إعلان خروشوف قراره بسحبها. [٦٦]

وفي ذلك اليوم (٢٢ أكتوبر ١٩٦٢) قال الرئيس الأمريكي في إذاعة تليفزيونية «انه خلال الأسبوع الماضي، فإن شهادة لا تخطئ قد أظهرت حقيقة أن سلسلة من مواقع الصواريخ يجرى الإعداد لها في هذه الجزيرة (كوبا) وتشير مواصفات هذه الصواريخ الحديدية إلى أنها صواريخ نووية متوسطة المدى قادرة على حمل رؤوس ذرية لمسافة أبعد من ١٠٠٠ ميل، قادرة على ضرب واشنطن وقناة بنما ومدينة المكسيك أو أي مدن أخرى في الجنوب الشرقي للولايات المتحدة، وأمريكا الوسطى، ومنطقة الكاريبي. كما أن هناك مواقع إضافية لم تستكمل بعد تبدو أنها تعد لصواريخ قادرة على الانطلاق أبعد من ذلك مرتين، وتستطيع بهذا الشكل ضرب معظم مدن نصف الكرة الغربي في مدى يصل إلى كندا وإلى بيرو... إن هذا التحول السريع لكوبا

إلى قاعدة استراتيجية هامة بوجود هذه الأسلحة ذات المدى البعيد، وذات الطبيعة الهجومية الواضحة والدمار الشامل المفاجئ، إنما يشكل تهديدا حربيا للسلام والأمن لكل الأمريكيين، وتحديا لتقاليد هذه الأمة، وهذه القارة، ولميثاق الأمم المتحدة، والتحذيرات العامة من جانبنا للسوفيت، كما أن هذا العمل يتناقض مع التأكيدات المتكررة للمتحدثين السوفيت العلنية والخاصة، من أن البناء العسكري في كوبا (الشيوعية) سوف يبقى ذا طبيعة دفاعية، وأن الاتحاد السوفييتي ليس له حاجة أو رغبة لإقامة صواريخ استراتيجية على أرض أي دولة أخرى». (٦٧)

وقد انتقلت الأزمة إلى مجلس الأمن، وزادت الدولتان الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة من أعبائهما العسكرية خوفا من تحول الحرب الباردة إلى حرب فعلية، وخيمت فكرة اندلاع الحرب العالمية الثالثة على أفكار السياسيين في العالم. وهددت الولايات المتحدة بتدمير مواقع الصواريخ في كوبا.

وفي ٢٨ أكتوبر ١٩٦٢ بدأت بوادر انفراج الأزمة من خلال الخطاب الذي أذاعه راديو موسكو موجها من خروشوف إلى كيندي والذي جاء فيه «إن الحكومة السوفيتية قد أصدرت تعليماتها بوقف العمل في مواقع الصواريخ، بل وإزالتها وإعادتها إلى الاتحاد السوفييتي، ولكي نصفي بأكبر سرعة ممكنة النزاع الذي يهدد السلام فإن الحكومة السوفيتية بالإضافة إلى تعليمات سابقة بوقف العمل في بناء قواعد الأسلحة، قد أصدرت تعليمات جديدة بفك هذه الأسلحة التي وصفتها بالهجومية وإعادتها إلى الاتحاد السوفييتي».

وهكذا أنهي هذا الخطاب حالة التوتر التي خيمت على العالم لمدة ستة أيام. (٦٨)

الصراعات داخل الكتلة الشيوعية

يدفع استعراض العلاقات الروسية مع الصين خلال عهدي روسيا القيصرية والصين الإمبراطورية، ثم على أثر استقرار نظام الحكم الجديد بعد الثورة البلشفية، يدفع على الاعتقاد بأن ثمة خلفية تاريخية للنزاع بين البلدين. فقد ظلت قصة العلاقات الروسية مع الصين عبر القرن التاسع عشر وحتى عام ١٩١٧ هي قصة

الضغط المستمر أحيانا بقوة السلاح، وفي الأغلب بالتغلغل الاقتصادي في مناطق الحدود في منشوريا ومنغوليا وغيرها. وقد قاوم الصينيون هذا الضغط الروسي بأفضل ما يستطيعون، بنقل السكان إلى المناطق المهددة، ثم بالوسائل الدبلوماسية وأحيانا بالقوة. (٦٩)

والواقع فإنه لا يمكن القول بأن الاتحاد السوفييتي قد عاون على القيام الثورة الشيوعية الصينية انطلاقا من اتجاهه العام بعدم تأييد أي حركة شيوعية ما لم يكن متأكدا وبشكل مطلق من قدرته على السيطرة عليها، وهكذا يمكن القول أن ستالين قد فوجئ بانتصار الثورة الشيوعية الصينية، وتحقق للزعيم الصيني ماوتسي تونج التفوق على التقدير والحكم على ستالين، واستطاع في أول مايو ١٩٤٩ أن يعلن عن قيام جمهورية الصين الشعبية.

وكان طبيعيا أنه بعد شهرين من إعلان الجمهورية الصينية أن يسافر ماوتسي تونج إلى موسكو، وأن يعقد معاهدة للصداقة والتحالف والمساعدة المتبادلة لمدة ثلاثين عاما، ووقعت المعاهدة في ١٤ فبراير ١٩٥٠. وقدم الاتحاد السوفييتي قرضا من ٣٠٠ مليون دولار بفائدة قدرها ١٪ على مدى خمس سنوات، كما تضمنت الجوانب الاقتصادية والثقافية إيفاد آلاف المهندسين والفنيين والعلماء والأساتذة والمدرسين السوفيت إلى الصين.

غير أن نقطة التحول في علاقات الصين بالاتحاد السوفييتي وبذور النزاع - الأيديولوجي - يمكن أن نجدها في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي (١٤-٢٥ فبراير ١٩٥٦) فقد كشفت الوثائق الصينية فيما بعد أن الصينيين كانت لهم تحفظاتهم حول المسائل التي عالجها خروشوف، وأن المؤتمر كانت له جوانبه الإيجابية والسلبية. والواقع أن التحفظات التي أوردها الصينيون على إدانة خروشوف لستالين لم تكن راجعة إلى اعتزاز من جانبهم بستالين، وإنما جاء اعتراضهم أساسا لأن خروشوف قد أعلن سياسة تصفية الستالينية بالنسبة لكل الكتلة الشرقية دون أن يهتم بالتشاور معهم. وربما كان هذا هو مفتاح الخلاف حول السلطة والمكانة داخل الكتلة الشيوعية، الأمر الذي سيشكل جوهر الصراع الصيني السوفييتي. ويبدو أن

القادة الصينيين قد شعروا بالنظر إلى حجم بلادهم ومساهماتهم الطويلة في قضية الشيوعية العالمية، وإقامة الشيوعية في بلادهم ثم لإسهامات ماوتسي تونج الأيديولوجية، أنهم جديرون بتجربة خاصة بهم، ولم يجدوا أي مبرر لاعتراضات سوفيتية على ذلك.

أما بالنسبة للسوفييت، فإنهم لم يتقبلوا الأفكار الصينية بسهولة، حيث ظلت موسكو المركز الرئيسي لتفسير الشيوعية .

وخلال الفترة التي كانت تتشكل فيها عناصر النزاع السوفييتي الصيني حدثت بعض التطورات التي كان لها أثر مباشر في إذكاء هذا النزاع. ويأتي في مقدمة هذه التطورات الخلاف حول تزويد الاتحاد السوفييتي للصين بالأسلحة والمعرفة الذرية، فمع عام ١٩٥٧ كانت القيادة الصينية مستعدة لتأكيد التحالف مع الاتحاد السوفييتي، على أن يتضمن هذا التحالف المساعدة الروسية في إعطاء الصين قدرة نووية مستقلة. فإذا كانت بريطانيا تملك قنبلة هيدروجينية باعتبارها حليفة للولايات المتحدة وبمساعدتها، فلماذا لا تمتلك الصين كذلك هذه القنبلة؟ على هذا الأساس جرت مفاوضات بين الصين والاتحاد السوفييتي في صيف ١٩٥٧ حول موضوع المساعدة النووية، وانتهت هذه المفاوضات باتفاقية سرية حول المشاركة النووية في ١٥ أكتوبر ١٩٥٧.

غير أنه مع عام ١٩٥٨، كان خروشوف قد تأثر بالفعل بمسألة أخطار التسلح الذرى، وكثف جهوده للوفاق مع الولايات المتحدة، هذا بالإضافة إلى تصميم الولايات المتحدة على الدفاع عن فورموزا... كل ذلك جعل خروشوف يرفض مساعدة الصين عسكريا ضد الأمريكيين.

وفي صيف وخريف عام ١٩٥٩ تسببت الصين في مضايقة كبرى للسوفيت بتحركاتها العسكرية على الحدود الهندية . وقد أصدرت وكالة تاس السوفيتية بيانا في أغسطس ١٩٥٩ جاء فيه أن الاتحاد السوفييتي له علاقات صداقة مع كلا البلدين، وأن أي محاولة لاستغلال حوادث الحدود بهدف إشعال الحرب الباردة يجب أن تدان بكل قوة.

وقد هاجم الصينيون موقف السوفيت غير المتحالف معهم ضد الهند، باعتبار أن القوى الاشتراكية العالمية لابد أن تتحالف معا ضد القوى الأخرى.

وقد اتخذ النزاع الصيني السوفييتي شكلا خطيرا حين تحول من الحرب الكلامية والجدل الأيديولوجي إلى الصدام المسلح على الحدود عام ١٩٦٩.

حقيقة حققت الصين التوصل إلى تفجير قنبلتها الذرية الأولى سنة ١٩٦٤، كما امتلكت عددا من الصواريخ بعيدة المدى، ويثير هذا الجانب العسكري في الخلاف السوفييتي الصيني في الواقع ما يمكن أن يسمى بسباق التسلح بين موسكو وبكين، والذي تأكدت الدلائل عليه بعد اشتباكات الحدود عام ١٩٦٩ وإزاء كل هذا لم يعد من الممكن الاعتقاد بأن الصراع بين الاتحاد السوفييتي والصين هو خلاف حول تفسير الشيوعية، فالتطورات والوقائع التي دار حولها الصراع تثبت أنه نزاع بين شعبين كبيرين. سيظل يفرق بينهما خلافات القوة، والموقع الجغرافي، والتقييم المختلف للمشكلات الدولية. (٧٠)

ولم يعان الاتحاد السوفييتي فقط من علاقاته بالصين، أي داخل ما أطلق عليه بالكتلة الشرقية، بل عانى أيضا من انشقاقات كبيرة من جانب دول أوروبا الشرقية الداخلة فيما سمى بدول الستار الحديدي.

وكانت أولى خطوات خروشوف هي اتجاهه إلى إصلاح الجسور مع يوغوسلافيا، التي أدت اتجاهاتها الذاتية والاستقلالية تجاه شئونها الداخلية والخارجية إلى اعتبار «أن قيادة الحزب الشيوعي اليوغوسلافي قد اتبعت خطا غير صحيح حول المسائل الأساسية الداخلية والخارجية، وهو ما يمثل ابتعادا عن الماركسية اللينينية». (٧١) فقد زار خروشوف يوغوسلافيا في ٢٦ مايو ١٩٥٥، وقد انتهت الزيارة بإقرار من الاتحاد السوفييتي بان الاختلاف في النظم الاجتماعية، والاختلاف في أشكال التقدم الاشتراكي هو فقط من اختصاص الدولة المعنية.

غير أن آثار هذا الاتجاه قد ظهرت بشكل حاد، وأحدثت شقوقا في علاقات الاتحاد السوفييتي بدول أوروبا الشرقية، حينما حدثت الانتفاضتان الشعبيتان في كل من

بولندا والمجر في أواخر سنة ١٩٥٦. وقد تم احتواء الانتفاضة البولندية منذ بدايتها، حين سمح الاتحاد السوفييتي باختفاء القادة الستالينيين، وجاء إلى الحكم بشخصية معروفة باتجاهاتها القومية وهي جومولكا، والذي تعرض للسجن أيام ستالين لنزعاته القومية.

أما في المجر، فقد اكتسب الوضع شكلا متطرفا بسبب الابعاد التي ذهب إليها أمري ناجي الذي جاء إلى الحكم كاستجابة لرغبة شعبية - وبعد إزاحة القادة القدامى - في فصل سياسات المجر عن أسس لا يمكن للاتحاد السوفييتي أن يتسامح معها، سواء في أوضاع المجر الداخلية، أو ارتباطاته الخارجية. فقد أعلن الزعماء الجدد في المجر بعد التغيير الذي حدث أنهم لن يأخذوا بنظام الحزب الواحد، وكان هذا يعنى في التفسير السوفييتي خلخلة سلطة الحزب الشيوعي المجرى، ورفض فكرة ديكتاتورية البروليتاريا، وفتح الطريق إلى إعادة النظام الرأسمالي وللقوى المعادية للاتحاد السوفييتي، أما ما كان أكثر حسما فهو إعلان المجر لاعتزامها الانسحاب من حلف وارسو الشيوعي، وهو في الاعتبار السوفييتي الدعامة العسكرية والسياسية لنظام التحالف العالمي الشيوعي. وقد أدى ذلك إلى تدخل الاتحاد السوفييتي عسكريا والإطاحة بالثورة المجرية، والإتيان بشخصية أكثر واقعية وهي جونس كادار الذي سيتبنى سياسات تعطى المجر قدرا من الحرية في السياسة الداخلية في إطار الالتزام بسياسة الولاء التام للاتحاد السوفييتي في السياسة الخارجية. (٧٢)

أما ما حدث في ألبانيا، فإنه يستحق النظر، لأن ألبانيا التي كانت قد اختطت الخط الشيوعي، ودخلت في عناق حار مع اليوغوسلاف، سرعان ما حولت ولاءها للاتحاد السوفييتي، ثم حولت ولاءها مرة أخرى ولكن هذه المرة للصين الشيوعية، بعد أن نبذت ولاءها للسوفيت.

والواقع فإنه من الأمور الجدلية عقد مقارنة بين الصين والاتحاد السوفييتي، فقد كانتا دولتين تؤمنان بمبادئ واحدة، وتعتنقان نفس النظرية السياسية، ولكن كان من الصعب اعتبار الشيوعية سواء في الاتحاد السوفييتي أو في الصين كمبدأ منفصل عن التقاليد الروحية والثقافية لكل دولة.

وقد تكلمنا فيما سبق عن «الشرخ» الصيني السوفييتي ولكن الجديد أن الشيوعيين الألبان تجاوبوا كثيرا مع التفسيرات الصينية للشيوعية.

وفي مؤتمر القمة للأحزاب الشيوعية الذي عقد في عام ١٩٦٠، فشل الزعماء السوفيت في الوصول إلى اتفاق بين الواحد وثمانين حزبا شيوعيا، فقد تبين أثناء انعقاد المؤتمر أن بعض الأحزاب الشيوعية الآسيوية ومن أمريكا اللاتينية كانت أقرب إلى الصين منها إلى الاتحاد السوفييتي.

وقد قام السوفيت بمجهود كبير لإقناع هذه الأحزاب بالعدول عن موقفها... إلا أنه كان هناك حزب واحد فشلت معه كل الطرق، فقد رفض الزعماء الألبان التراجع، والتصق الزعيم الألباني الشيوعي أنور خوجه بالزعيم الصيني ماوتسي تونج.

وقد اضطرت موسكو إلى اتخاذ إجراءات قاسية لمواجهة «الأخطار اليسارية» في الكتلة الشرقية الشيوعية، وشعر السوفيت بأن المثال الألباني لا يجب أن يسمح له بالانتشار. ففي ربيع وصيف عام ١٩٦١، فعل السوفيت كل ما في وسعهم لترويض الثائرين الألبان، إلا أن مجهوداتهم ذهبت أدراج الرياح، ومن ثم شهد مؤتمر الحزب الشيوعي الثاني والعشرين هجوما عنيفا على ألبانيا.

وفي ٢٣ أكتوبر ١٩٦١، وبعد انقضاء أسبوع واحد على افتتاح مؤتمر الحزب الشيوعي السوفييتي الثاني والعشرين، انسحب الوفد الصيني من المؤتمر وعاد إلى بكين، ولم تمض جزافا هذه (الإهانة) التي وجهها الشيوعيون الصينيون، ولم يعمد السوفيت إلى هجوم مباشر على بكين، إلا أن الكرملين صب جام غضبه على تيرانا بدلا من بكين، وتعرضت ألبانيا لسيل من الاتهامات الشنيعة والذم والقدح، واندفع المتكلمون السوفيت الواحد تلو الآخر يهاجمون الزعماء الألبان، فنعت الزعيم الألباني الشيوعي أنور خوجه بأنه منافق ومنشق وخائن، وأنه من المفترين على «العقائد» الماركسية اللينينية.

وازدادت المواقف عداوة بين الاتحاد السوفييتي،ألبانيا، وقد فطن أنور خوجه.

- الزعيم الشيوعي الألباني- إلى بداية المتاعب عندما لم تصل إليه دعوة لحضور المؤتمر الثاني والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي أسوة ببقية الدعوات التي

أرسلت إلى زعماء الأحزاب الشيوعية الأخرى، وفي حفل استقبال في السفارة الصينية في تيرانا في أول أكتوبر ١٩٦١ هدد خوجه بأن أي شخص يهدد ألبانيا سوف تتم محاسبته حسابا عسيرا. والواقع أن ألبانيا أصبحت الرمز الواضح للمقاومة للهيمنة السوفيتية داخل الحركة الشيوعية كلها، وقد ساهمت بنصيب في تصدع الكتلة الشيوعية في النهاية. (٧٣)

كما أن من أكبر التحديات التي واجهها الاتحاد السوفييتي من بين صفوف دول أوروبا الشرقية، تلك الاتجاهات الاستقلالية التي بدأت رومانيا تفصح عنها مع بداية الستينات من القرن العشرين في علاقاتها بالاتحاد السوفييتي.

وتبدو خطورة هذا الموقف الروماني إذا ما نظرنا إليه من زاوية السياسة السوفيتية، ومحاولتها المتطورة لتحقيق مزيد من الدمج الاقتصادي والعسكري والسياسي لحلف وارسو من خلال مؤسسات التحالف الاقتصادي والعسكري:

منظمة الكو ميكون Council For Mutual Economic Aid (CMEA) وحلف وارسو Warsaw Treaty. واللجنة الاستشارية السياسة Political Consultative Committee

وفي هذا النطاق أبدت رومانيا معارضة وتعويقا لسياسات الاتحاد السوفييتي، فرفضت اتجاهات التكامل الاقتصادي بين دول الكوميكون، وكذلك موقفها من الاتجاهات السوفيتية نحو تخصص عسكري أكبر، والمشاركة في الأعباء المالية داخل حلف وارسو.

وفيما يتعلق بالموقف من الكوميكون، فقد تبلور الموقف السوفييتي فيما عبر عنه خروشوف، حين جدد الدعوة إلى قيام جهاز موحد للتخطيط داخل المنظمة يربط وينسق بشكل أوثق بين اقتصاديات دولها، على أساس من التخصص وتقسيم العمل. فقد قال أمام اجتماع للجنة المركزية للحزب الشيوعي «إن ممثلي دول الكوميكون سوف يلتقون في المستقبل القريب على مستوى القمة لاتخاذ خطوة أكثر إلى الأمام على طريق تطوير التعاون الاقتصادي. إننا يجب أن نتخذ خطوات أكثر جرأة لانشاء جهاز موحد للتخطيط لجميع دول الكوميكون». (٧٤)

إلا أن رومانيا قاومت هذا الاتجاه، وقدمت ما عرف بإعلان الاستقلال الذي أذاعته في عام ١٩٦٤ على شكل بيان من اللجنة المركزية لحزب العمال الروماني، والذي يتضح منه عمق صراع المصالح بين دول الكوميكون. (٧٥)

أما الموقف الروماني من حلف وارسو فإنه يعد امتدادا لموقفه من الكوميكون، غير أن رومانيا فيما يتعلق بتحديد علاقتها بالحلف، اتخذت أسلوب المناورة والحذر لإدراكها ما يعنيه الحلف بالنسبة للاستراتيجية السوفيتية. وقد بدأت رومانيا بالمطالبة بانسحاب القوات السوفيتية من الأراضي الرومانية. إلا أن الاتحاد السوفييتي على لسان برجنيف في مارس ١٩٦٦ أكد «أنه في حقل التعاون العسكري، وفي وجه الأعمال العدوانية المكثفة للقوى العدوانية بزعامة الولايات المتحدة، فإن عملية زيادة تدعيم علاقاتنا بالدول الاشتراكية، وزيادة دعم وتحسين جهاز حلف وارسو يجب أن تستمر.. وقد أصبح ضروريا أن تقدم العلاقة الوثيقة لأعضاء الحلف قوة منيعة في الدفاع عن النظام الاشتراكي» وقد رد الزعيم الروماني شاوشيسكو في مايو ١٩٦٦ في الاحتفال بالذكرى الخامسة والأربعين لتأسيس الحزب الشيوعي الروماني «إن إلا حلاف العسكرية ووجود قواعد عسكرية وقوات على أراضى دول أخرى هي أحد الحواجز في طريق التعاون بين الشعوب، كما لا يتفق مع الاستقلال والسيادة الوطنية للشعوب والعلاقات الطبيعية بين الدول».

على أن هذا السلوك الروماني تجاه حلف وارسو لم يتعد حدود المناورة، ذلك أن رومانيا كانت تدرك أنها لا تريد أن تصعد مواقفها مع الاتحاد السوفييتي إلى درجة المواجهة.

كما ارتبط موقف رومانيا من قضية النزاع الصيني السوفييتي بموقفها العام من الأسس التي يجب أن تحكم العلاقات داخل الحركة الشيوعية الدولية وهو الموقف الذي تبلور في أنها ترفض وصاية حزب شيوعي على آخر، كما أن رومانيا استنكرت إمكانية قيادة الحركة الشيوعية الدولية من مركز واحد.

كما يعتبر تطوير رومانيا لعلاقاتها مع ألمانيا الغربية في وقت مبكر مؤشرا قويا على سياساتها المستقلة وغير المتطابقة مع الموقف السوفييتي، فقد شرعت رومانيا

منذ عام ١٩٦٦ في سلسلة من الاتفاقيات والعلاقات الاقتصادية توجت في ٣٠ يناير ١٩٦٧ بزيارة وزير خارجية رومانيا لألمانيا الغربية زيارة رسمية، واتفق خلال الزيارة على إقامة علاقات دبلوماسية كاملة، وبذلك أصبحت رومانيا أول بلد شيوعي - بعد الاتحاد السوفييتي - يقيم علاقات دبلوماسية مع حكومة بون.

وبالنسبة لتقييم العلاقات السوفيتية الرومانية بوجه عام نجد أنها تميزت وخاصة من جانب رومانيا بالمرونة، وبمعرفة الحدود التي تقف عندها حتى لا تثير عداء الاتحاد السوفييتي ضدها.

ومن الصعب أن نتناول التصدعات والهزات التي تعرضت لها علاقات الاتحاد السوفييتي بدول الكتلة الشرقية دون أن نشير إلى الأزمة التشيكوسلوفاكية (يناير - أغسطس ١٩٦٨) .

ففي ٥ يناير ١٩٦٨ انتخبت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي ألكسندر دوبشيك سكرتيرا أول للحزب خلفا لأنطوبين نوفتني الذي شغل هذا المنصب منذ عام ١٩٥٧، وقد بدأ هذا الأجراء في حينه بداية سلسلة من التغييرات. وقد حرص دوبشيك أن يؤكد تجاوبه مع متطلبات التغيير، فأكد أن ما حدث هو بداية لحركة ديموقراطية تستهدف «أن تستعيد الاشتراكية في تشيكوسلوفاكيا وجهها الإنساني»، وأن المجتمع في بلاده قد نضج واصبح مهيئا ومستعدا لأن يتطور إلى مجتمع ديموقراطي واشتراكي حقيقي، وواضح التعارض بين هذه الآراء وسياسات الاتحاد السوفييتي الرامية إلى الإبقاء على الحزب الشيوعي وحده داخل دول الكتلة الشيوعية، مع استمرار هيمنة موسكو على هذه الكتلة. ومما زاد من حجم المشكلة أن تشيكوسلوفاكيا تقع في قلب أوروبا الشرقية، ولها حدود مشتركة مع ألمانيا الشرقية والغربية والاتحاد السوفييتي وبولندا والمجر، مما زاد من مخاوف موسكو من انتشار مثل هذه الآراء. وقد بدأت سلسلة من الاجتماعات على مستويات مختلفة بدأت بمؤتمر ودسون في ٢٣ مارس ١٩٦٨ الذي ضم سكرتيري الأحزاب الشيوعية ورؤساء الحكومات في دول أوروبا الشرقية الشيوعية عدا رومانيا. واجتماع سيريا على الحدود التشيكية بين رئاسة اللجنة المركزية للحزبين الشيوعيين التشيكي والسوفييتي،

ومؤتمر براتسلافا في ٣ أغسطس ١٩٦٨ الذي ضم كل دول حلف وارسو، حيث أمكن التوصل إلى خطة جماعية، وتحديد مسئوليات كل دولة في الحلف بالنسبة لأمن الدول الاشتراكية، وتأكيد الارتباطات والتحالفات بين أعضائها.

غير أن الموقف في تشيكوسلوفاكيا ظل يتطور على نفس الخطوط التي أثارت الاتحاد السوفييتي، وخاصة بعد صدور ما عرف ببرنامج العمل، وإلى ما أحاط به من بروز«الطريق التشيكوسلوفاكي إلى الاشتراكية». الأمر الذي أعتبره الاتحاد السوفييتي وحلفاؤه مبررا لتدخلهم عسكريا بالعملية التي جرت في ٢٠، ٢١ أغسطس ١٩٦٨. فقد اقتحمت وحدات عسكرية مسلحة من الاتحاد السوفييتي أساسا، ومعها وحدات من جمهوريات بلغاريا والمجر وبولندا وألمانيا الديموقراطية (الشيوعية) اقتحمت أراضى تشيكوسلوفاكيا في ٢١ أغسطس، لتأكيد الحكم الشيوعي، والقضاء على محاولات التغير الديموقراطي فيها.(٧٦)

وقد عبر الزعيم السوفييتي برجنيف عن رأيه بالنسبة لإعادة تشيكوسلوفاكيا إلى حظيرة الدول الشيوعية بالقوة بقوله «حين تحاول قوى خارجية أو داخلية معادية للاشتراكية أن تدفع دولة اشتراكية ما في اتجاه استعادة النظام الرأسمالي، وحين ينشأ تهديد لقضية الاشتراكية في هذا البلد، والذي هو تهديد للكومنولث الاشتراكي ككل، فإن هذا لا يعتبر مجرد مشكلة تعنى هذا البلد، وإنما مشكلة مشتركة بين كل الدول الاشتراكية». (٧٧)

ومجمل القول أن هذه الشروخ التي ظهرت في علاقة الاتحاد السوفييتي بدول أوروبا الشرقية، وعولجت بشكل أو بآخر، فإن آثارها لم تزل تماما، وظلت التوترات الكامنة في هذه العلاقة . ولا ننسى في هذا الإطار ما ذكره الزعيم السوفييتي بودجورنى للسفير الأمريكي بيم Beam من أن الأجراء العسكري السوفييتي في تشيكوسلوفاكيا قد منع حربا عالمية، للتدليل على أن شرق ووسط أوروبا هي تاريخيا مناطق الاضطراب وعدم الاستقرار، وهي التي سببت إلى حد كبير الحربين العالميتين الأولى والثانية، وقد تسبب حربا ثالثة. (٧٨)

والواقع فإن شعور الاتحاد السوفييتي بمسئوليته عن تطبيق النظام الاشتراكي طبقا لتصوره، جعلته يواجه بحسم كل المحاولات الرامية إلى عودة الديموقراطية والنظام الرأسمالي إلى دول الكتلة الشيوعية، والواقع فإن المجهودات السوفيتية في سبيل تحقيق الأهداف الشيوعية بالنسبة لكتلة حلف وارسو وغيرها. هذا إلى مواجهته للمخططات الأمريكية والغربية المضادة، جعلت السوفيت يدخلون في سلسلة مفرغة من المواجهات التي كلفتهم كثيرا، مما عاد بالسلب على الاقتصاد السوفييتي وساهم إلى حد كبير في الانهيار النهائي.

البيريسترويكا

احتلت قضية النظرية والتطبيق مكانا متميزا في الفكر الماركسي، وإذا كان ماركس قد حاول أن يقدم دعوته الاشتراكية على أساس علمي، فإنه حرص في نفس الوقت على أن يفرد مكانا رئيسيا للفعل أو الممارسة . فوحدة النظرية والتطبيق هي إحدى العبارات الماركسية. [٧٩]

ويقول جورباتشوف في هذا الصدد إن البيريسترويكا ضرورة ملحة نشأت عن عمليات التطور العميقة في مجتمعنا الاشتراكي، فهذا المجتمع ناضج للتغيير، ويتوق إليه منذ أمد طويل، وأي تأخير في بدء البيريسترويكا كان بالإمكان أن يؤدى إلى تفاقم الوضع الداخلي في المستقبل القريب، وهذا ما كان سيحمل في طياته، إذا ما تحدثنا بصراحة، أزمات اقتصادية وسياسية خطيرة».

والواقع فإن المراقبين لاحظوا شيئا ما لا تفسير له لأول وهلة، لقد بدأت روسيا والاتحاد السوفييتي تفقد قوة الاندفاع، وتكرر الإخفاق الاقتصادي بدرجة أكبر، وتراكمت الصعوبات والمشكلات، وبدأت تظهر في المجتمع الروسي ظاهرة الركود.

وعند تحليل الوضع تبين أن هناك تباطؤا في النمو الاقتصادي، ففي حقبة الستينات والسبعينات من القرن العشرين تدهورت معدلات نمو الدخل القومي لأكثر من النصف. وبحلول بداية الثمانينات انخفضت إلى مستوى قريب من الركود الاقتصادي. لقد بدأ الاتحاد السوفييتي الذي كان يوما ما يلحق بسرعة بدول العالم

المتقدمة، يفقد موقفا بعد آخر. وبالإضافة إلى ذلك بدأت تتسع الفجوة في كفاءة الإنتاج، وجودة المنتجات، والتطور العلمي والتكنولوجي.

وكان الاقتصاد السوفييتي يواجه إرهاقا ماليا متزايدا، ولم يساعد بيع كميات كبيرة من النفط وغيره من موارد الوقود والطاقة والمواد الخام في السوق العالمية إلى التحسن، بل أدى إلى تفاقم الوضع، واستخدمت الدخول النقدية التي تم الحصول عليها بهذه الطريقة لحل مشكلات الساعة أساسا بدلا من أن تستخدم للتحديث الاقتصادي.

وكان لابد لمعدلات النمو الهابطة،والركود الاقتصادي من أن يؤثرا على جوانب حياة المجتمع السوفييتي الأخرى، وأثرت الاتجاهات السلبية بشكل خطير على المجال الاجتماعي، وأدى إلى ظهور ما يسمى بمبدأ «المتبقي» والذي تلقت على أساسه البرامج الاجتماعية والثقافية ما يتبقى في الميزانية بعدما يخصص للإنتاج. وبدا في بعض الأحيان أن أذنا صماء كانت تعطى للمشكلات الاجتماعية. وبدأ المجال الاجتماعي يتخلف عن المجالات الأخرى من حيث التطور التكنولوجي، والعاملين والخبرة، ومن حيث ما هو أكثر أهمية وهو نوعية العمل.

لقد واجه الاتحاد السوفييتي تناقضات كبيرة، فهو قد ضمن للمجتمع السوفييتي عمالة كاملة، ووفر ضمانات اجتماعية أساسية، ولكنه عجز في نفس الوقت عن استخدام القدرة الاشتراكية لتلبية الاحتياجات المتنامية بالنسبة للإسكان، وفي نوعية وكمية المواد الغذائية المطلوبة، وفي تحقيق الخدمات الصحية، والتعليم الجيد، وفي حل المشكلات الأخرى التي نشأت بالطبع في مجرى تطور المجتمع.

كما كان هناك وضع سخيف يتطور، فالاتحاد السوفييتي، وهو أكبر منتج في العالم للصلب، والمواد الخام والوقود والطاقة، كان يواجه نقصا في تلك الأمور بسبب الاستخدام غير الكفء. ورغم أن الاتحاد السوفييتي من أكبر منتجي الحبوب في العالم، كان عليه أن يشترى ملايين الأطنان من الحبوب في العام لسد احتياجاته. ومع أنه كان لديه عدد كبير من الأطباء، ومن أسرة المستشفيات بالنسبة لكل ألف من

السكان، كان هناك نقص صارخ في الخدمات الطبية، وكان يمكن للصواريخ السوفيتية أن تصل إلى الكواكب البعيدة، إلا أنه بجانب ذلك كان هناك نقص واضح في الكفاءة في استخدام المنتجات العلمية لسد الحاجات الاقتصادية، كما أن كثيرا من الأجهزة المنزلية السوفيتية كانت من نوع رديء.

وكان لتقديم الواقع «الخالي من المشكلات» آثاره العكسية فقد حدث انفصال بين القول والعمل، مما حفز على السلبية العامة، وعلى عدم تصديق الشعارات التي تعلن، وكان من الطبيعي تماما أن يؤدى هذا الوضع إلى فجوة في المصداقية، واصبح كل ما يعلن ويطبع في الصحف والكتب الدراسية مثار شك وتساؤل، وبدأ الفساد يسرى في الأخلاقيات العامة، وزاد إدمان الخمور والمخدرات، ووقوع الجرائم، مما أدى إلى السوقية والأذواق الهابطة. وغالبا ما حل العبث السياسي والتوزيع الواسع النطاق للجوائز والمكافآت محل الاهتمام الحقيقي بالشعب، ونشأ شعار «كل شيء على ما يرام» . وفترت المطالبة بالانضباط والشعور بالمسئولية يوما بعد يوم، وبذلت المحاولات لتغطية كل ذلك بحملات صاخبة، ومشروعات طنانة، واحتفالات بذكرى مناسبات عديدة على المستوى المركزي والمحلى، وكان عالم الواقع اليومي، وعالم الرخاء الزائف يتباعدان أكثر فأكثر.

وعجز العديد من تنظيمات الحزب الشيوعي عن الدفاع عن المبادئ، أو في الهجوم بحزم على الاتجاهات الخاطئة، وأسلوب تغطية البعض على البعض، والتسيب في الانضباط. وغالبا ما انتهكت مبادئ المساواة بين أعضاء الحزب، واصبح العديد منهم في المواقع القيادية فوق الرقابة والنقد، مما أدى إلى الفشل في العمل، وإلى ممارسات خاطئة وخطيرة.

وظهر في بعض المستويات الإدارية عدم احترام القانون، وتشجيع للكلام المضلل، وعمليات الرشوة، والخنوع والتمجيد، وكانت الجماهير العاملة ساخطة بحق على سلوك الأشخاص الذين يحظون بالثقة والمسؤولية، ومع ذلك يسيئون استخدام السلطة، ويقمعون النقد، ويجمعون الثروات بوسائل غير مشروعة، والذين تحولوا إلى شركاء في أعمال إجرامية، إن لم يكونوا منظمين لها.

وقاد كل ذلك إلى الاستنتاج المنطقي الوحيد بأن البلاد على شفا أزمة، وقد أعلن هذا الاستنتاج في اجتماع أبريل ١٩٨٥ للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، والذي دشن استراتيجية البيريسترويكا الجديدة، وصاغ مبادئها الأساسية.

لقد كانت الحاجة إلى التغيير تختمر ليس فقط في مجال الحياة المادي، وإنما في الوعي الشعبي كذلك، وانتقد الناس الذين يمتلكون الخبرة العملية وإحساسا بالعدالة تلك الأعراض المرضية الخطيرة.

ورأي كل الشرفاء بمرارة أن الجماهير فقدت اهتمامها بالشئون الاجتماعية، وأن العمل لم تعد له مكانته المحترمة، وأن الناس، وبخاصة الشباب، يهرعون وراء الكسب بأي ثمن، وتحقق الشعب من الفجوة بين الأقوال والأفعال. كما أن الأدب الروسي الذي لعب دورا عظيما في حياة الروس الروحية، قدم أفكارا جديدة عن مظاهر الظلم وسوء استخدام السلطة بعد أن أعطى له الضوء الأخضر لتوجيه الانتقادات لمسيرة الحركة الشيوعية. وقد حاول الكتاب، ومنتجو الأفلام والمخرجون المسرحيون، بعث روح جديدة في المجتمع، وأعدوا الشعب معنويا للبيريسترويكا. [٨٠]

وطبقا لما قدمه الدكتور حازم الببلاوي في مقدمته لكتاب ميخائيل جورباتشوف عن البيريسترويكا، فإنه استخلص أن أمورا ثلاثة يمكن أن تعبر عن جوهر رسالة البيريسترويكا، وهذه الأمور هي حتمية التعاون الدولي، وضرورة السعي إلى تحقيق الكفاءة الاقتصادية، والعمل على إضفاء مزيد من الديموقراطية. وتمثل هذه الثلاثية.. التعاون الدولي، الكفاءة الاقتصادية، الديموقراطية السياسية كلا مترابطا ومتداخلا بحيث يستدعى كل عنصر منهما العنصرين الآخرين، ويعتمد عليهما . فالعالم ينتقل من مجرد علاقات بين الدول إلى نوع من الاقتصاد العالمي المترابط والمتداخل، ولم يعد من المستطاع أن تقتلع بعض الدول نفسها من سياق العالم المتطور دون أن تلحق بنفسها أذى بالغا. كما أن قضية الحرب والسلام بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي شغلت الفكر الماركسي منذ لينين. فقد رأي لينين أن الحرب حتمية نتيجة للتناقضات في النظام الرأسمالي، ولكن وفي عام ١٩٥٦ جاء تقرير خروشوف حاسما في هذا الصدد» ... فالتعايش السلمي بين النظم الاجتماعية

المختلفة أصبح ضروريا لمنع الحروب، فرغم أن النصر النهائي للاشتراكية لم يتحقق بعد، ورغم استمرار النظام الرأسمالي في جزء من العالم، فإنه تقوم الآن فرصة حقيقية لمنع الحروب العالمية من حياة الإنسانية». وقد تطور الأمر مع جورباتشوف فلم نعد فقط بصدد تعايش سلمى وإمكانية منع الحروب، بل أن الحرب أصبحت مستحيلة، ويقول جورباتشوف في هذا الصدد في كتابه البيريسترويكا«المبدأ الأساسي للنظرة السياسية الجديدة بسيط للغاية: إن الحرب النووية لا يمكن أن تكون وسيلة للتوصل إلى أهداف سياسة أو اقتصادية أو أيديولوجية أو آية أهداف أخرى.. وهذا الاستنتاج ثوري حقا، لأنه يعني استبعاد الأفكار التقليدية للحرب والسلام. إن الوظيفة الأساسية للحرب كانت على الدوام تبريرا للحرب وتفسيرا عقليا لها. ولكن الحرب النووية عديمة المعنى، إنها غير عقلانية، فلن يكون هناك منتصرون ومنهزمون في نزاع نووي عالمي. فالحضارة العالمية سوف تفنى بشكل محتوم. إنها انتحار وليست حربا بالمعنى التقليدي للكلمة».

ومع استحالة الحرب، وضرورة التعاون الدولي، فإن استعادة القدرة الاقتصادية تصبح أمرا لامناص منه، وهذه هي المهمة الثانية للبيريسترويكا.. ومن الغريب أن مشكلة الإدارة الاقتصادية قد واجهت كل الدول الاشتراكية بشكل أو بآخر، وغرابة الأمر ترجع إلى أن هذه النظم تستند إلى نوع من التفسير الاقتصادي للتاريخ، وبالتالي تعطى للاقتصاد أهمية بالغة، ولكنها تواجه في التطبيق مشكلات غير قليلة، نتيجة لسوء وضعف الإدارة الاقتصادية. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن دراسات ماركس وإنجلز تعلقت في الواقع بالمجتمعات الرأسمالية، والتنبؤ باتجاه هذه المجتمعات نحو الاشتراكية، ولم تتضمن هذه الدراسات أي تحليل لما يمكن أن يكون عليه الوضع بعد تحقيق الثورة الاشتراكية، وزوال الرأسمالية. وهكذا يمكن القول بأن الاشتراكيين قد فوجئوا بالفعل بإدارة الاقتصاد الاشتراكي دون أن تتوافر لديهم دراسات كافية لمثل هذه الأوضاع الجديدة. وكذلك فإن ارتياب الاشتراكيين من نظريات الاقتصاد الرأسمالي، قد أفقدهم القدرة في كثير من الأحيان على استخدام العديد من أدوات التحليل الاقتصادي الحديثة.

وأخيرا فقد فرضت ظروف نشأة الاشتراكية في روسيا، وما صادفته من جو عدائي، ضرورة الالتجاء إلى نوع من اقتصاد الحرب، للتصنيع السريع، ومواجهة مخاطر التدخل الأجنبي. وقد فرضت هذه الأوضاع الالتجاء إلى أساليب التخطيط المركزي، وبقدر ما كانت هذه الأوضاع مقبولة ومبررة في فترة التصنيع الأولى، بقدر ما أصبحت عبئا على تقدم الاقتصاد، بعد أن تطور وازداد تعقيدا وتنوعا.

وقد أدت سيطرة أساليب التخطيط المركزي على الاقتصاد في الاتحاد السوفييتي إلى إهدار مسألة الكفاءة في الإدارة الاقتصادية، مما جعل المطالبة بالإصلاح الاقتصادي على رأس قوائم الإصلاح للسياسة السوفيتية منذ نهاية عصر ستالين. وعندما فتح خروشوف الباب لنقد النظام القائم، استرعى انتباه الأوساط الغربية في ذلك الوقت ما نشرته جريدة البرافدا عن أفكار الاقتصادي الروسي ليبرمان، فقد أكد ليبرمان على أهمية إعطاء المشروعات حوافز مباشرة دون إلزامها بخطط كمية للإنتاج، مع إتاحة الفرصة لإقامة علاقات مباشرة بين المنتجين والمستهلكين - وهو التعبير المسموح به آنذاك للحديث عن اقتصاد السوق - والأخذ بمؤشرات الربح بدلا من الأهداف الكمية للإنتاج. كذلك طالب كوسيجين - رئيس الوزراء في ذلك الوقت - بشيء من ذلك في تقريره أمام اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي في عام ١٩٦٥.

وعندما جاء جورباتشوف مطالبا باستخدام المؤشرات الاقتصادية بدلا من الأهداف الكمية، فإنه أكد استمرار خط المطالبة بالإصلاح الاقتصادي، وإعادة الاعتراف بأهمية السوق، وعناصر التكلفة في اتخاذ القرارات الاقتصادية... وهو يقول في هذا الصدد «إن جوهر ما تخطط لعمله في كل أنحاء البلاد يتمثل في أن نستبدل الأساليب التي يهيمن عليها الطابع الإداري، بأساليب يهيمن عليها الطابع الاقتصادي في الأساس. ومن الواضح تماما للقيادة السوفيتية أنه لابد وأن يكون لدينا حساب اقتصادي كامل.. ستكون لنا فترة انتقال معقدة للغاية، تتعايش خلالها كل من الدواليب القديمة، وتلك التي أدخلت حديثا. بيد أن الحساب الاقتصادي الكامل سيطبق دون تأخير، وسنتابع هذا المسار بنشاط مكتسبين الخبرة العملية، وسوف نجرب ونختبر كل شيء».

ثم يوضح جورباتشوف المهمة الثالثة للبيريسترويكا، فإن كل الإصلاحات التي نادى بها ستبقى مجرد دعوات في الهواء، ما لم يصاحب ذلك ديموقراطية واسعة وحقيقية «إن إعادة بناء حياتنا يعنى فهم الضرورة الموضوعية للتجديد والتشريع، وقد نشأت هذه الضرورة في قلب مجتمعنا. ويكمن جوهر البيريسترويكا في حقيقة أنها توحد الاشتراكية مع الديموقراطية». «ونحن على قناعة بأن ربط المصالح الشخصية بالاشتراكية لا يزال يشكل المشكلة الرئيسية ونحن نشير بالطبع إلى المصالح الشخصية بالمعنى العريض، وليس بمجرد المعنى المادي... إن العقد الاجتماعي وما يرتبط به من ديموقراطية هو على وجه التحديد ما يدعم إحساس الفرد بأنه مواطن وسيد».

وعندما تطرح البيريسترويكا هذه القضايا للمناقشة، فإنها تطرح في الواقع أهم ما كان يشغل المواطنين في الدول الاشتراكية من قضايا . ولم يعرض جورباتشوف آراءه ومقترحاته باعتبارها حلولا نهائية بقدر ما هي تساؤلات ودعوة للتفكير. وهو لم يتردد في نقد الأوضاع القائمة في بلده، ولكنه اقترح البيريسترويكا عن إيمان كامل بالاشتراكيـــة [٨١]. ولكن الأحداث التالية جاءت على غير ما يشتهي جورباتشوف، أي أن أفكاره الإصلاحية - مع التمسك بالاشتراكية - لم تتحقق، بل كانت النتيجة، مع التحولات الأخرى هي انهيار الاتحاد السوفييتي، وانهيار الشيوعية فيه وفي كل دول أوروبا الشرقية.

الحرب السوفيتية الأفغانية وسقوط الشيوعية

تقع أفغانستان في قلب آسيا، وتحتل موقفا استراتيجيا هاما، جعلها على مر التاريخ ملتقى لقوافل التجارة بين الشرق والغرب، ومعبرا للغزاة من الشرق والغرب والشمال، وعلى أرضها امتزجت حضارات الشرق والغرب.

وإن أبرز ما يلفت النظر في تضاريس أفغانستان كثرة الجبال، فهي بلاد جبلية بصفة عامة، وتغطى الثلوج أغلب أراضيها شتاء، كما أن مرتفعاتها وقمم جبالها مغطاة بالثلوج أغلب أيام السنة، لأن ارتفاعاتها شاهقة تتراوح بين ٣٠٠٠، ٣٦٠٠ متر.

وقد يصل ارتفاع بضعها إلى ٦٠٥٩ مترا. وأهم مدن أفغانستان كابل العاصمة الحديثة للدولة وقندهار وهرات وجلال أباد ومزار شريف وبغلان وغزني. [٨٢]

وفي التاريخ الحديث، كانت أفغانستان - لصعوبة تضاريسها وقسوة مناخها - منطقة صعبة المراس . وقد قام البريطانيون بغزو أفغانستان سنة ١٨٣٩، واحتلوا كابل. وفي عام ١٨٤٢ قامت قوة بريطانية تتكون من ١٦٥٠٠ جندي بريطاني ونحو ١٢٠٠٠ من الهنود - إبان الاستعمار البريطاني للهند - قامت بغزو أفغانستان، ولكن الحملة انتهت بكارثة القضاء عليها، فقد عاد من كل الجيش البريطاني جندي واحد أمكنه الوصول إلى قلعة جلال أباد. كما هاجم البريطانيون أفغانستان مرة أخرى سنة ١٨٧٨، إلا أنه أمكن مرة أخرى في عام ١٨٨٠ إبادة هذه القوة البريطانية. وأصبح عبد الرحمن خان أميرا على أفغانستان، وان كان قد وافق على اضطلاع البريطانيين بشئون السياسة الخارجية الأفغانية.

وفي عام ١٩١٩ كانت آخر الحروب البريطانية الأفغانية، ففي عهد أمان الله خان طالبت أفغانستان باستعادة استقلالها وسيطرتها على شئونها الخارجية من البريطانيين، وتم للأفغان ذلك ولم يتدخل البريطانيون في الشئون الأفغانية بعد ذلك.

وكانت الحكومة الأفغانية من أوائل الحكومات التي اعترفت بحكم البلشفيك في روسيا. وقد حازت أفغانستان على معاونات ضخمة من الاتحاد السوفييتي قبل الغزو الشيوعي.

وكان لانتشار أفكار التحرر الوطني في الشرق الأوسط آثاره على أفغانستان في ستينات القرن العشرين، مما أدى إلى تكوين الأحزاب اليسارية واليمينية.

وفي سنة ١٩٦٤ صدر دستور لأفغانستان على يد الملك ظاهر شاه، مما سمح بتعدد الأحزاب. وفي عام ١٩٦٥ تشكل الحزب الديموقراطي الشعبي PDPA وهو حزب يساري.وفي غضون ذلك الوقت تشكلت الجبهة الإسلامية، عندما ظهرت جماعة إسلامية برئاسة الباكستاني عبد الله المودودي، وحاول تشكيل فرع لمنظمته في كابل،

بمعاونة بعض المتخرجين من جامعة الأزهر، وخاصة من أعضاء قسم الشريعة الإسلامية في جامعة كابل، بغرض إحياء آراء جماعة الإخوان المسلمين. وكان هؤلاء أهم الشخصيات على المسرح الأفغاني أثناء الاحتلال السوفييتي لأفغانستان، وأثناء الحرب الأهلية التي تلتها.

وقد انشق على الحزب الديموقراطي الشعبي PDPA جماعتا «خلق» وبارتشم (العلم)، ولكنهما خضعتا للسوفيت بعد ذلك. (٨٣)

ورغم أن محمد داود لم يكن شيوعيا، فإنه كان متحالفا مع السوفيت. وعلى أية حال، فإنه بعد عزل الملك محمد ظاهر سنة ١٩٧٣، كان داود قد تولى السلطة بمعاونة الشيوعيين الأفغان الموالين لموسكو. ولكن في حوالي سنة ١٩٧٥ بدأ داود في تغيير سياساته تجاه الشيوعيين، فأبعد عددا منهم من المناصب الحكومية، وتولى منصب رئيس الجمهورية الأفغانية ليعطى لحكمه صفة شرعية. وجاء في خطابه إلى الزعيم السوفييتي بريجنيف«نحن لن نسمح لكم بأن تفرضوا آراءكم علينا بخصوص طريقة حكمنا لبلادنا، ومن الذي نوظفه أو نستبعده في الحكومة، وكيف وأين نستخدم الخبراء الأجانب، لأن ذلك الأمر سيظل من صميم اختصاص الدولة الأفغانية. وستظل أفغانستان فقيرة، ولكن حرة في اتخاذ قراراتها وأعمالها». (٨٤)

وقد حاول الرئيس محمد داود التخلص من PDPA والجماعات المنشقة عنه في ربيع عام ١٩٧٨، وذلك باعتقال قادته. ولكن في أبريل ١٩٧٨ تم انقلاب مسلح، فقد استولت قوة عسكرية على القصر الرئاسي وقتلت داود وكل من بداخل القصر. وبعد ذلك بأيام تم إعلان قيام جمهورية أفغانستان الديموقراطية، واصبح نور محمد تراكي رئيسا للدولة. إلا أنه في سبتمبر ١٩٧٩ قامت قوات حفيظ الله أمين باغتيال الرئيس تراقي، وبدأت في مواجهة المعارضة الأفغانية التي عمت ثلثي الدولة. (٨٥)

والواقع فإن المقاومة الإسلامية كانت قوية تماما في مواجهة حكم الشيوعيين الأفغان. وقد انضمت وحدات عسكرية كاملة إلى المقاومة الإسلامية. ومع نهاية عام ١٩٧٩ هبط عدد أفراد الجيش الأفغاني الرسمي من ٩٠,٠٠٠ إلى ٤٠,٠٠٠، ولاحظ

الاتحاد السوفييتي أن هذه الدولة «الشيوعية» ليست خاضعة للسيطرة وللإشراف من جانب موسكو. وهكذا تحرك السوفيت لوضع حد للفوضى. وبدأت الاستعدادات السوفيتية لمواجهة الموقف، وللحفاظ على الشيوعية العالمية. وخبرات السوفيت في سحق ثورة المجر سنة ١٩٥٦، وغزو تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٨ بخسائر قليلة نسبيا، جعلتهم يخططون لغزو أفغانستان لتحقيق استتباب الهدوء تحت الحكم الشيوعي. وكان المخطط السوفييتي ينحصر في تأسيس جيش محلي أفغاني قوى خاضع للسوفيت، وتشكيل عنصر مخابرات KG.B أفغاني قوى لمعاونة قوات الغزو السوفيتية، ثم الإعداد لتدبير غطاء جوى ممتاز للعمليات البرية.

وفي أبريل ١٩٧٩ أرسل الجنرال أليكسي يبشيف Aleksiy Yepishev بعثة من بعض الجنرالات إلى أفغانستان لدراسة الموقف، وكان الجنرال Yepishev قد قام بزيارة مماثلة إلى تشيكوسلوفاكيا قبل الغزو السوفييتي لها سنة ١٩٦٨.

وفي أغسطس ١٩٧٩ أرسل الجنرال ايفان بافلوفسكي Ivan Pavlovski قائد القوات البرية السوفيتية نحو ٦٠ ضابطا لزيارة أفغانستان لمدة بضعة أسابيع. وكان الجنرال بافلوفسكي قائدا لقوات غزو تشيكوسلوفاكيا في عام ١٩٦٨.

وخططت عملية الغزو السوفييتي لأفغانستان كي تكون في عطلات عيد ميلاد المسيح، كي تكون الحكومات الغربية في عطلة، ولا تستطيع التصدي المباشر للغزو. وهكذا عبرت القوات السوفيتية حدود أفغانستان [٨٦]، وواجهتها مقاومة أفغانية مدعومة بالمعاونات الأمريكية الفعالة، وظن السوفيت أن المقاومة الأفغانية سوف تنتهي، ولكنها فقط كانت قد بدأت سنة ١٩٧٩ ولتستمر عشر سنوات كاملة.

والواقع فإن السوفيت اقترفوا في حربهم الأفغانية العديد من الانتهاكات ضد الشعب الأفغاني. فمنذ عهد محمد داود (١٧ يوليو ١٩٧٣) ومن جاءوا بعده مثل نور الدين تراكي وحفيظ الله أمين وبابراك كارميل الذين تعاونوا مع السوفيت، وشجعوا على قيام التنظيمات الشيوعية، فقد عمت عمليات الاضطهاد للمسلمين، وما تبعها من تعذيب وقتل للأبرياء والتنكيل بأعداد لا تحصى من زعماء الفكر الإسلامي.

وتضمنت القوائم التي أصدرتها وزارة الداخلية في عهد بابراك كارميل أسماء كبار رجال الدين الإسلامي البارزين في أفغانستان الذين قتلتهم الحكومات الشيوعية الأفغانية ومعها قوات الاحتلال السوفييتي الوحشية.

كما استخدم الجيش الأحمر الغازات السامة القاتلة ضد أبناء الشعب الأفغاني.(٨٧)

لقد فقد الشعب الأفغاني في مقاومته الباسلة للاحتلال السوفييتي نحو مليوني شهيد، كما هاجر نحو خمسة ملايين مواطن إلى خارج البلاد. وهاجر نحو مليوني مواطن إلى مناطق متفرقة داخل أفغانستان، وانهار الاقتصاد الأفغاني انهيارا كاملا.

أما بالنسبة للسوفيت فإن الحرب الأفغانية - وبدون مبالغة - كانت انتحارا وطنيا، حتى أن العديد من الكتاب أشاروا بأن حرب أفغانستان كانت مشروعا محفزا للقضاء على الاتحاد السوفييتي. (٨٨)

فقد خسر السوفيت من المعدات العسكرية ١١٨ طائرة مقاتلة، و ٣٣٣ طائرة هيلكوبتر، و١٤٧ دبابة، و١٣١٤ عربة مصفحة، ٤٣٣ قطعة مدفعية ثقيلة، ١١٣٦٩ شاحنة. (٨٩)

واقتصاديا فإن تكاليف الحرب التي استطالت إلى عشر سنوات وطبقا للتقديرات السوفيتية كانت حوالي ٨,٢ مليار دولار سنويا. أما بالنسبة للخسائر البشرية، فإن التقديرات السوفيتية الرسمية تحدد هؤلاء بنحو ١٥٠٠٠ رجل، ولكن الدراسات المتعمقة أكدت أن الخسائر البشرية هي ما بين ٤٠,٠٠٠، ٥٠,٠٠٠ جندي سوفييتي، هذا بجانب عشرات الألوف من الجرحى.

أما النتائج السياسة، فكانت أساسا أن هذه الحرب كسرت السطح الزجاجي الهش الذي غطى به الاتحاد السوفييتي ذلك التأخير الداخلي والتخلف لمدة عقود من السنين.

كما تتمثل الخسائر الاجتماعية، في الفوضى التي سادت كل الأمور داخل الاتحاد السوفييتي، فقد انتشرت عمليات تعاطى المخدرات، وعمليا فإن كل قوات الاتحاد

السوفييتي والتي عملت في أفغانستان في سنوات الاحتلال، والتي يبلغ مجموعها ٥٤٦,٢٠٠ جندي أصبحت لهم تجارب مع المخدرات، لأن الحصول على المخدرات في أفغانستان كان أسهل من الحصول على الخمور، وكان يمكن شراء هذا العقار السام بالمقايضة ببعض طلقات الذخيرة.

كما يعاني بضعة آلاف من الجنود السوفيت من حالات نفسية سواء بفقدهم قدرتهم على التفكير أو التحول إلى العنف، وانخراطهم في عمليات المافيا الداخلية في روسيا .[٩٠]

والواقع فإن ٤٦٩,٦٨٥ جندي سوفييتي تم معالجتهم في المستشفيات في أفغانستان، ومن هؤلاء ٥٣,٧٥٣ مصابا في العمليات، و ٤١٥,٩٣٢ تمت معالجتهم من الأمراض المتوطنة والمعدية، كما أن ٨٨,٥٦٪ من هؤلاء عولجوا من أوبئة خطيرة. والواقع فإن صعوبة تضاريس أفغانستان أدت إلى صعوبات كبيرة في تكريس العلاج للقوات السوفيتية، هذا بالإضافة إلى صعوبات الإمداد والتموين. [٩١]

وبالنسبة للشعب، أخفت حكومة الاتحاد السوفييتي أنباء غزوها لأفغانستان عند بداية الغزو، كما أخفت حقيقة خسائرها البشرية والمادية، ولكي تكون الحرب شبه سرية، اختيرت القوات من منطقة البلطيق ووسط آسيا، كما تم حشد الجنود من القرى الصغيرة، ولكن كل ذلك لم يجد نفعا، وانتشرت أخبار الخسائر السوفيتية الضخمة في كل مكان.

لقد كانت «الإمبراطورية» السوفيتية ترتكز على ثلاثة قوائم القوات العسكرية والمخابرات KGB ، والحزب الشيوعي ويمكن القول أن الحرب السوفيتية الأفغانية أدت إلى تآكل هذه القوائم أو الأعمدة الأساسية لبناء الاتحاد السوفييتي، وأدت به إلى السقوط. وعلى سبيل المثال فإن القادة العسكريين رفضوا الانصياع لأوامر يازجوف Dimitris Yazgov ، وفلاديمير كريشكو Veadimir Krychkoo في أغسطس ١٩٩١ لقصف البرلمان الروسي، حيث كان بوريس يلتسين يقود العملية لإنهاء المرحلة الشيوعية. كما أن المدنيين الذين أقاموا المتاريس دفاعا عن البرلمان وتحدوا الدبابات، كانوا من الجنود الذين خدموا في أفغانستان. [٩٢]

وقد ظهرت صحف جديدة نشرت أخبارا عن الحرب السرية، وظهرت المقالات الأدبية التي هاجمت النظام الشمولي. والواقع فإن هذه الفترة شهدت انتعاشة أدبية فبعد أن تم قهر الأدباء والمفكرين في الاتحاد السوفييتي ولفترة طويلة منذ اندلاع الثورة البلشفية، وزج بالكثيرين منهم في السجون أو أرسلوا إلى معسكرات الاعتقال في سيبريا، بدأت انفراجه في عالم الفكر. ولا ننسى في هذا الإطار الأديب الروسي سو لجنسنين الذي نفي إلى أصقاع سيبريا سنة ١٩٤٥ عندما كتب رسالة إلى صديق يسخر في سطورها من ممارسات الجنرال ستالين. ولم يطلق سراحه إلا بعد موت ستالين سنة ١٩٥٣ وتوجه سو لجنستين إلى قرية نائية ليعمل مدرسا، وهناك كتب روايته «يوم في حياة ايفان» وفيها يروى جانبا من مأساته، ولكن دور النشر لم ترحب بها، ولم يتم نشرها إلا في عام ١٩٦٢ في عهد نيكيتا خروشوف، الذي جرؤ عام ١٩٥٦ على انتقاد ستالين.

ولكن نجح أعوان ستالين في اقصاء خروشوف عن السلطة سنة ١٩٦٤، واقترن ذلك بفرض الحظر على روايات سولجنستين، غير أن الروائي باغت موسكو وأثار غضبها عندما فاز بجائزة نوبل للأدب سنة ١٩٧٠، وأضحى الغضب ثورة عارمة عندما نشر سرا الفصول الأولى من رواية «أرخبيل الجولاج» عام ١٩٧٣، وأمرت سلطات الكرملين بطرد الروائي من وطنه. (٩٣) ولكن ها هي الحرب الأفغانية السوفيتية تنتهي عام ١٩٨٩، وها هي البيرويسترويكا تغير أفكار السوفيت، وها هو يلتسين يقود الجماهير لنفض غبار النظام الشمولي مع عام ١٩٩١.

الواقع فإن الحرب السوفيتية الأفغانية كانت عاملا رئيسيا في تدمير الأسطورة التي أحاطت بالاتحاد السوفييتي لمدة عقود من السنين، مع ارتباط ذلك بالبيريسترويكا والجلازنوست، ومع انهيار وتخلف الاقتصاد... كل هذا أدى إلى انهيار الاتحاد السوفييتي.(٩٤)

وتسود في روسيا وغيرها من جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق، نظرتان أساسيتان إلى أسباب انهيار الاتحاد السوفييتي. وإحدى هاتين النظرتين تمثل «نظرية المؤامرة» والتي تختزل هذه المشكلة البالغة التعقيد في مقولة إن الغرب كان له

مصلحة في ذلك، ولهذا قوض الاتحاد السوفييتي بالاعتماد على عملائه. أما وجهة النظر الأخرى فتقول بأن الاتحاد السوفييتي قد انهار بفعل قوانين التطور التاريخي الموضوعية، ولأنه كان إمبراطورية مصطنعة، ولذلك فإنه لم يستطع أن يصمد في السباق مع الحضارة العصرية، التي قدمت أطروحات عالية للتقدم الديموقراطي والاقتصادي والاجتماعي والإعلامي والتكنولوجي.

ونعتقد أن هناك عناصر كثيرة من الحقيقة في كلتا وجهتي النظر، غير أنه لا ينبغي المغالاة في إضفاء الأهمية على هذه النظرة أو تلك.

ومن السذاجة إنكار أن الدول الغربية الكبرى كانت تبغي دائما إضعاف الاتحاد السوفييتي، بل لقد كانت تحلم باختفائه بيد أن ذلك كان مجرد حلم وأمنية. فالمواجهة العسكرية السياسية بين حلفي وارسو وشمال الأطلنطي، وموازين القوى العالمية، ومواقع الاتحاد السوفييتي القوية في العالم لم تكن لتسمح للدول الغربية باستغلال تفوقها التقني الذي حققته في العشرين سنة الأخيرة، وظلت القيم الاجتماعية والثقافية والعقائدية الشيوعية ترهب الغرب. ورغم تعميق التعاون، بل وحتى تشابك المصالح السياسية والعملية في بعض مجالات النشاط، كانت مصالح الغرب تستهدف إضعاف الاتحاد السوفييتي. وقد استغل ساسة الغرب بمهارة آثار الحرب الأفغانية في إحراز عدد من المكاسب الاستراتيجية في نهاية الثمانينات وبداية التسعينات من القرن العشرين، ومن بينها خفض الأسلحة التقليدية والنووية، وتوحيد ألمانيا، وسحب القوات السوفيتية من وسط أوروبا، ورحبوا بحرارة بتفكيك مجلس التعاون الشيوعي (الكوميكون) وانهيار مؤسساته المتشابكة، ورحبوا أيضا بسقوط حلف وارسو، ذلك الحلف الدفاعي الشيوعي والذي كان بمثابة القطب المقابل لحلف الأطلنطي NATO.

وعاد ذلك كله على الغرب بفوائد سياسية وعسكرية واستراتيجية واقتصادية هائلة، واصبح بإمكانه أن يقول للفئات الساخطة في المجتمعات الغربية أنه لا بديل لسياسة الغرب عن الرأسمالية، لأن الاشتراكية منيت بالهزيمة. ولهذا صور الغرب الاتحاد السوفييتي وكأنه مات ميته طبيعية.

وظن قادة الكرملين أن عصر «انسجام المصالح الشامل» قد حل، الأمر الذي أدخل السرور على ساسة الغرب، ولدهشة العالم طالب الزعماء الروس بعد تفتت الاتحاد السوفييتي بالانضمام إلى حلف الأطلنطي، وحين تلقوا ردا سلبيا جافا ورأوا أن الأمور لا تسير نحو حلول عصر «انسجام المصالح» غير قادة الكرملين موقفهم تغييرا حادا، وراحوا يعارضون انضمام دول شرق أوروبا إلى حلف الأطلنطي . وهذا أيضا موقف لا يتسم بالحكمة، لأن تقرير هذه المسألة لم يعد رهنا بموسكو.

وفي روسيا وغيرها من الدول المنبثقة عن الاتحاد السوفييتي السابق، تجرى عملية لا سابق لها في تاريخ الدول فعلى مساحة سدس الكرة الأرضية نشهد تحول الملكية العامة الحكومية إلى الملكية الخاصة، مع ما يصاحب ذلك من عمليات استغلال النفوذ والتربح والرشوة والفساد.

والواقع فإن موقف يلتسين يجب رصده في كل هذه التحولات، ففي عام ١٩٨٨ أخذ يلتسين وهو الموظف الحزبي الريفي البسيط يلعب دور الشيوعي اليساري الذي ينتقد البيريسترويكا من مواقع «يسارية» . وفي عام ١٩٨٩ لعب دور الدعاية«للتسيير الذاتي الاشتراكي اللينيني» وللنضال ضد امتيازات البيروقراطية، ودعا إلى اشتراكية إنسانية تنادي بالقضاء على كافة أشكال اللا مساواة الاجتماعية. وفي عام ١٩٩٠ أصبح يلتسين شيوعيا إصلاحيا، ثم تحول مع الوقت إلى ديموقراطي برجوازي مكتمل.. وتنكر للاشتراكية الدولية. ثم تنكر للشيوعية عموما بعد أحداث أغسطس ١٩٩١، وأخيرا ظهر في عام ١٩٩٣ في صورة «منقذ الوطن» الذي يعمل من أجل التحول الرأسمالي.

ولاشك أن يلتسين - بعد فشل محاولة الانقلاب في أغسطس ١٩٩١ - تحول إلى موقف العداء الصارخ للشيوعية، وأخذ يعلن جهارا عن انحيازه للرأسمالية وإلغاء التأميم. وأصبحت الملكية الخاصة فكرة مسيطرة عليه.

ولكي نفهم الصورة العامة والوضع الذي كان قائما عشية الانقلاب الذي قام به في سبتمبر - أكتوبر ١٩٩٣، ينبغي أن نعرف طبيعة موقف الدول الغربية من الأحداث

الجارية في روسيا آنذاك . فقد قدم الغرب الدعم ليلتسين، ولولا هذا الدعم لما كتب للمغامرة أن تنجح. (٩٥)

انعكاس سقوط الاتحاد السوفييتي على الكتلة الشيوعية

ومع سقوط الاتحاد السوفييتي والشيوعية، انعكست آثار ذلك على «دول الستار الحديدي» أي الكتلة الشيوعية في أوروبا الشرقية. فقد انهار حلف وارسو، ولم يحدث الانهيار المتوقع لحلف الأطلنطي بالمقابل، وإنما أخذ الحلف في التوسع في اتجاه الشرق. وحازت بولندا والمجر وجمهورية التشيك عضوية حلف الأطلنطي. وبالمثل حدث في الروابط الاقتصادية ما حدث في الروابط الأمنية، فقد انهارت منظمة الكوميكون التي كانت تمثل أداة التكامل الاقتصادي بين دول الكتلة الاشتراكية على أساس من تقسيم العمل والإنتاج – وليس على أساس السوق– بين الدول الأعضاء وتدافعت كل الدول التي كانت منضمة إلى المنظمة لتأخذ دورها في الانضمام إلى الاتحاد إلا وربى (الغربي) ولكن ربما كان ما هو أخطر من كل ذلك هو التجربة التي خاضتها هذه الدول داخليا، وترتب عليها انفجارات كبرى شكلت ابرز علامات ما بعد الحرب الباردة، فما بين منغوليا وألمانيا كانت توجد تسع دول ما لبث أن حلت محلها ٢٨ دولة هي المجر، وبولندا، وجمهورية التشيك، وسلوفينيا، وليتوانيا، وسلوفاكيا، ومنغوليا، وبلغاريا، ورومانيا، وأرمينيا، ومولدوفا، وأستونيا، ولاتفيا، وروسيا، وألبانيا، وكرواتيا، وأوكرانيا، وجورجيا، ومقدونيا، وقرغيزستان، والبوسنة، وروسيا البيضاء، وأذربيجان ويوجوسلافيا ،وطاجيكستان، وكازاخستان، وأوزبكستان، وتركمنستان. وست دول فقط من هذه الدول كانت موجودة خلال الحقبة الاشتراكية باسمها وشكلها الحالي، وهي بولندا، والمجر، ورومانيا، وبلغاريا، وألبانيا، ومنغوليا، وثلاث منها كانت موجودة خلال الفترة ما بين الحربين العالميتين (ليتوانيا، ولاتفيا، وأستونيا)، وما تبقى بعد ذلك أنشأ أشكالا جديدة من كيانات سياسية كان لها بعض الوجود في فترات زمنية سابقة، ولكن بزوغها في بداية القرن الحادي والعشرين يمثل تجربة سياسية فريدة وجديدة من نوعها لأهلها وللعالم.

وعلى نحو ما فإن هذه الدول عاشت خلال فترة قصيرة تجربة سياسية فريدة من نوعها، تشكلت خلالها هويتها الذاتية، ومساحتها الجغرافية، وفي الوقت الذي كان عليها فيه التلاؤم والتواؤم مع العولمة، والاندماج الأمني مع حلف الأطلنطي أحيانا، والتكامل الاقتصادي مع الاتحاد الأوربي أحيانا أخرى، فإن طبيعة هذه الدول تحولت من انتماء للدولة الاشتراكية إلى انتماء للدولة القومية كما عرفتها أوروبا منذ القرن التاسع عشر، حيث تكون الدولة أكثر تجانسا حول جماعة إثنية محددة. على عكس الحال في جنوب وجنوب شرق آسيا، حيث يسود نمط الدولة متعددة الأثنيات أو الأعراق. وفي الوقت الراهن فإن نسبة التجانس العرقي في دول شرق أوروبا تصل إلى ٧٨٪ في المتوسط مقارنة بنسبة ٦٥٪ في آسيا. وباختصار شديد فإن الاتجاه الأوربي نحو تطبيق حق تقرير المصير وجد نفسه بالفعل يمتد لكل أوروبا في العقد الأخير من القرن العشرين.

وبالتوازي مع هذه الثورة «القومية» كانت تجرى ثورة سياسية أخرى جرفت في طريقها نظام الحزب الواحد الذي يدعى أنه طليعة الطبقة العاملة، ومحقق دورها التاريخي في بناء الشيوعية، وحلت محله، على الرغم من التباينات العديدة بين الدول الشيوعية السابقة، نظم ديمقراطية. صحيح أن الأحزاب الشيوعية في بعض هذه الدول قد أعادت صياغة نفسها من جديد في أشكال قومية، بعضها متعصب للغاية، لكن المتوسط العام يشير إلى تغير هائل نحو الديمقراطية، والقيم الليبرالية، والتعددية السياسية. وعلى الرغم من أن بعض هذه التغييرات قد اعترته فترات عنيفة، فإنه لو أخذ في الاعتبار المتوسط العالمي العام لمثل هذه التغيرات لأمكن الحكم بأن الحالة في شرق أوروبا كانت أكثر سلمية بكثير من تغيرات مماثلة في باقي أنحاء العالم.

ولم يكن ما حدث في شرق أوروبا وباقي الدول الشيوعية وفي الاتحاد السوفييتي السابق وعلى تخومه، ثورة قومية وسياسية فقط، وإنما كان ثورة اقتصادية شاملة، فكما هو معروف فإن هذه الدول عرفت اقتصادا تحكمه الدولة في جوانبه الإنتاجية والتوزيعية في إطار خطة مركزية شاملة، بيد أنه بعد عشر سنوات تغير كل ذلك وبات

اقتصاد السوق هو الغالب في كل هذه الدول. ووفقا لبعض الدراسات، فإن هناك دولتين هما جمهورية التشيك وأستونيا قد حررتا اقتصاديهما إلى مستوى التحرر الموجود في أمريكا الجنوبية. وبعد مضى عقد من الزمن على انهيار الاتحاد السوفييتي وبداية التوجه نحو إصلاحات اقتصاد السوق في العديد من الاقتصاديات الاشتراكية لوسط وشرق أوروبا، يمكن استنتاج عدة دلالات من هذه الخبرة فالتحول إلى الخصخصة كان في واقع الأمر نتيجة مباشرة لعدم كفاءة نظام التخطيط المركزي، والاتجاه إلى تحرير الموارد والقدرات الاقتصادية المتوافرة، والعمل على رفع مستويات المعيشة، كتلك التي توجد في الدول الصناعية المتقدمة.

وقبل الإشارة إلى استنتاج حول هذه العملية التي حدثت في بلدان أوروبا الشرقية ودول الكومنولث، هناك صعوبة في القول بأن ثمة نموذجا محدد الأركان تجمع عليه تجارب تلك الدول، ويعنى بعملية التحول من النظام المركزي إلى نظام السوق. وبالتالي فنحن أمام تجارب عدة لكل منها خصائصها المميزة، وإن كان هناك بعض السمات العامة التي تجمع بينها، ولعل أهم العناصر المشتركة تكمن في : التخلي عن آليات الدعم المباشر للصناعات الوطنية، وهي الآليات التي كانت تمارسها نظم التخطيط المركزي على نحو واسع، وأيضا العودة إلى حافز الربح، وإعادة تخصيص الموارد من القطاعات القديمة إلى القطاعات الجديدة، وإعادة الهيكلة للكثير من الشركات القائمة، من خلال ترشيد الإدارة والعمل، وتغيير خطوط الإنتاج، وفتح المجال أمام استثمارات جديدة.

لقد تغير تركيب الملكية في اقتصاديات أوروبا الشرقية وأوروبا الوسطى بشكل سريع، ومقدار عملية التحول إلى الخصخصة الذي تم إنجازه خلال العقد الماضي لم يسبق له مثيل. فقد تمت خصخصة عدة آلاف من الشركات الصغيرة ومؤسسات الخدمة في أقل من عقد من الزمن. وتشير بعض التقديرات إلى خصخصة أكثر من ٦٠ ألف شركة صغيرة ومتوسطة، وهو ما يمثل تقريبا ١٠ أضعاف ما تمت خصخصته في باقي العالم خلال السنوات العشر السابقة. كما أن عدد الشركات الخاصة التي

أنشئت في بلدان العالم الاشتراكي السابق لم يسبق لها مثيل، حيث قدرت بمئات الآلاف من الشركات، لاسيما في بلدان وسط أوروبا والبلطيق.

وطبقا لبيانات البنك الدولي والبنك الأوربي للتعمير والتنمية، فمع حلول عام ١٩٩٥، كانت لدى بلدان أوروبا الوسطى والبلطيق أنشطة للقطاع الخاص أكبر كثيرا مما لدى معظم بلدان الاتحاد السوفييتي السابق فيما عدا روسيا، ولكن في ١٩٩٧ بدأت الفجوة تضيق نسبيا. وعلى الرغم من ذلك ففي معظم الاقتصاديات التي تمر بمرحلة انتقال ظلت هناك نسبة عالية من النشاط الاقتصادي في أيادي الدولة، فعلى سبيل المثال، فإن واحدة من أكبر البلدان المتقدمة في مجال تطوير القطاع الخاص، وهي جمهورية التشيك، مازالت الدولة فيها تسيطر على كل أو أغلبية الحصص في الشركات العاملة في القطاعات الحيوية، كما أنها تملك نسبة عالية من الأسهم في أكبر ٤٠ شركة وبنكا، تم اعتبارها كمؤسسات استراتيجية، وتملك أيضا معظم الأسهم في ٣٠ شركة من الشركات غير الاستراتيجية.

وبالرغم من أن الخصخصة كانت تتم في معظم الاقتصاديات التي تمر بمرحلة انتقال بدرجة عالية من الضخامة، فقد كان هناك التزام قوى أيضا بإصلاح الشركات المتبقية، ودعم إدارتها وهياكلها الإنتاجية . وقد كشفت دراسة دولية أجريت على بضعة آلاف من الشركات التي تمت خصخصتها في دول أوروبا الشرقية عن أن معدل نمو الإنتاج السنوي بهذه الشركات تراوح بين ٤٪ و ٥٪، وهو معدل يماثل خمسة أضعاف معدل النمو في الشركات المملوكة للدولة. كما أن الشركات التي تمت خصخصتها قد خفضت قوة العمل لديها بنسبة تزيد على ٢٠٪، بالمقارنة مع الشركات المملوكة للدولة، كما أنها توقفت عن تلقى إعانات حكومية مباشرة. وهناك دراسات عديدة أظهرت الكثير من التأثيرات الإيجابية للملكية الخاصة فيما يتعلق بالأداء العام للمشروع. (٩٦)

والخلاصة أن سقوط القيصرية كان بسبب الظلم الاجتماعي، وما واكبه من البطش بالجماهير، وكذلك للهزائم المنكرة للجيش الروسي أثناء الحرب العالمية الأولى. كما أن سقوط الشيوعية كان أيضا للظلم الاجتماعي، والتنكيل بالمعارضين

وما كان من التمسك بنظريات سياسية خيالية لم يكن في الإمكان تطبيقها على أرض الواقع. هذا بالإضافة إلى الخسائر البشرية والمادية الضخمة، والتي عانى منها الاتحاد السوفييتي في حربه في أفغانستان، وهكذا سقط الاتحاد السوفييتي وانهارت الشيوعية في العالم كله، مع بقاء دول مثل كوريا الشمالية وكوبا لتكون بمثابة متاحف حية لدراسة النظام الشيوعي على الطبيعة ولو إلى حين.

الهوامش:

١. د. عبد المنعم إبراهيم الدسوقي الجميعي - العالم الأوروبي في التاريخ الحديث والمعاصر منذ عصر النهضة إلى عصر البيريسترويكا ط ١ ١٩٩١ ص ١٨٦.

٢. لمزيد من التفصيلات انظر د. جاد طه - تاريخ أوروبا الحديث - جامعة عين شمس ١٩٩٨.

٣. Ashort History of The USSR part 1 - Academy of Sciences of The USSR. Institute of History Prgress publishes. Moscow Editorial Board 11. Smirnov, M.P. Vyatkin. S.M. Levin, N.Y. Nosov. 1956 P. 172.

٤. لمزيد من التفصيلات د. جاد طه - التاريخ الاقتصادي - جامعة عين شمس ١٩٩٩ ص ٢٣-٣٠.

٥. Ashort History of The USSR Part 1 op. cit p.p. 172-174.

٦. Ibid p. 178-180.

٧. د. عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة ١٨١٥- ١٩٦٠ - المركز العربي للبحث والنشر - القاهرة ١٩٨٣ - ص ١١٧ - ١١٨.

٨. Ashort History of The USSR Part 1. op. cit p.p. 184-185.

٩. Ibid. p. 188.

١٠. Ashort History of The USSR Part 1. op. cit p.p. 208-209.

١١. ibid p.p. 223-225.

١٢. Ashort History of The USSR Part 1. op. cit p.p.241-245.

١٣. ibid p.p. 251- 252.

١٤. Ashort History of The USSR Part 1. op. cit p.p. 302-303.

١٥. Ibid p.p. 253-254.

١٦. Ashort History of The USSR Part 1. op. cit p.p. 263-264.

١٧. Ibid p. 273.

١٨. د. عبد الحميد البطريق - المصدر السابق ص ١٢٢ - ١٢٤ .

١٩. Ashort History of The USSR Part 1. op. cit p.p. 274-275.

٢٠. د. عبد الحميد الطريق - المصدر السابق ص ١٢٧ - ١٢٩.

٢١. د. عبد العزيز سليمان نوار - التاريخ المعاصر - أوروبا من الحرب الروسية الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية (١٨٧١ - ١٩٤٥) الجهاز المركزي للكتب الجامعية ١٩٧٧ ص ٢٨٣.

٢٢. د. يحيى الجمل - الاشتراكية العربية ص ١١٦ - ١١٧.

٢٣. إبراهيم البرايري - الاشتراكية الديموقراطية التعاونية ص ٢٧.
٢٤. د. جاد طه - ثورة ٢٣ يوليو بين النظرية والتطبيق - مكتبة سعيد رأفت ١٩٦٩ ص ١٤-١٦.
٢٥. د. يحيى الجمل - المصدر السابق ص ١٢٢ - ١٢٤.
٢٦. د. جاد طه - الاتحاد الاشتراكي العربي في ميزان العمل السياسي - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٤ ص ٤٢- ٤٣.
٢٧. د. يحيى الجمل المصدر السابق ص ١٣١ - ١٣٤
٢٨. د. جاد طه - الاتحاد الاشتراكي العربي في ميزان العمل السياسي ص ٤٣.
٢٩. د. جاد طه - ثورة ٢٣ يوليو بين النظرية والتطبيق - المصدر السابق ص ١٩.
٣٠. د. عبد العزيز سليمان نوار - المصدر السابق ص ٢٨٤ - ٢٨٥.
٣١. د. عبد الحميد البطريق - المصدر السابق ص ٢١٩- ٢٢٠.
٣٢. Ashort History of The USSR Part 1. op. cit p.p. 291-295.
٣٣. د. عبد العزيز سليمان نوار - المصدر السابق ص ٢٨٥.
٣٤. د. جاد طه - ألمانيا إلى أين المصير - سلسلة اقرأ - دار المعارف ١٩٩٠ ص ٦٨ -٧١.
٣٥. د. عبد العزيز سليمان نوار - المصدر السابق ص ٢٨٥.
٣٦. د. عبد الحميد البطريق - المصدر السابق ص ٢٢٠ - ٢٢٢.
٣٧. د. عبد العزيز سليمان نوار - المصدر السابق ص ٢٨٦.
٣٨. د. عبد الحميد البطريق - المصدر السابق ص ٢٢٣.
٣٩. د. عبد العزيز سليمان نوار - المصدر السابق ص ٢٨٦.
٤٠. د. عبد الحميد البطريق - المصدر السابق ص ٢٢٣ - ٢٢٦.
٤١. ديفيد شوب - لينين - ترجمة فاطمة خليل - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٧٢ ص٥
٤٢. ولد لينين سنة ١٨٧٠ في سمبرسك Simbrsk في أواسط نهر الفولجا، من أب كان مفتشا للتعليم في منطقة سمبرسك، ووالدته كانت مدرسة بإحدى مدارس المنطقة، وكان له أخ حكم عليه بالإعدام لأنه اشترك في المؤامرة التي انتهت بمقتل القيصر اسكندر الثالث في عام ١٨٨٧، وقد أثرت تلك الحادثة في نفسه أثرا بالغا. وقد تجلت ميول (لينين) المتطرفة عندما كان طالبا في كلية الحقوق بجامعة كازان، فقد طردته الجامعة لاتهامه بالميول المتطرفة، وإثارة الطلبة على الحكم القيصري (١٨٨٧). واضطر إلى الرحيل إلى سان بطرسبرج ليتم دراسته، وهناك سنحت له الفرصة ليشبع ميوله، فاتصل بالجماعات التي تعتنق مبادئ كارل ماركس في الاشتراكية المتطرفة، وأصبح عضوا في الحزب الديموقراطي الاشتراكي، واضطهد كغيره من المتطرفين، وحكم عليه بالنفي ثلاث سنوات في سيبريا بسبب نشاطه الثوري بين العمال في العاصمة، وعندما انتهت فترة سجنه سنة ١٩٠٠ فضل الرحيل إلى سويسرا ليؤسس صحيفة أسمها «الشرارة Iskara» لينشر فيها آراءه، وكان يقوم بتهريبها إلى روسيا.

كما أمضى (لينين) عاما من حياته في لندن (أبريل ١٩٠٢ - أبريل ١٩٠٣) حيث واصل إصدار صحيفته بمعاونة بعض الديموقراطيين الاشتراكيين من الإنجليز. وفي شهر أغسطس ١٩٠٣ حضر لينين مؤتمر الحزب الديموقراطي الاشتراكي الذي انعقد خارج روسيا، وحدث فيه الانقسام الكبير في الحزب، بين البلشفيك والمنشفيك. وقد كان لينين السبب الأول في ذلك الخلاف، وأصبح زعيما لحزب البلشفيك وقد تزعم أثناء المؤتمر فكرة رفض التعاون مع الأحزاب الأخرى المعتدلة، ولذلك يعتبر لينين هو أبو البلشفية. وعندما قامت ثورة ١٩١٧، كان لينين يعيش في مدينة زيورخ بسويسرا، وعندما أعلنت الحكومة المؤقتة العفو عن المجرمين السياسيين، أصبح الطريق مفتوحا أمامه للوصول إلى روسيا والمشاركة في الأحداث.

انظر د. عبد الحميد البطريق - المصدر السابق ص ٢٢٧-٢٢٨ .

ولمزيد من التفصيلات - ديفيد شوب - لينين - ترجمة فاطمة خليل - المصدر السابق.

وانظر أيضا :

K Gusev - V Naumov Ashort History of The USSR Progress Publishers - Moscow 1967 p.p. 50-72.

٤٣. د. عبد الحميد البطريق - المصدر السابق ص ٢٢٩ - ٢٣٣.

٤٤. ميخائيل جورباتشوف البيريسترويكا - مقدمة بقلم د. حازم الببلاوي - ط٤ - دار الشروق ١٩٩٠ ص٦.

٤٥. د. عبد الحميد البطريق - المصدر السابق ص ٢٣٤ - ٢٣٨.

٤٦. المصدر السابق ص ٢٤٥-٢٤٨.

٤٧. د. عبد العزيز سليمان نوار - المصدر السابق ص ٢٩٦.

٤٨. د. عبد الحميد البطريق - المصدر السابق ص ٢٤٩-٢٥٠.

٤٩. Y. Playokov, V. Lelchuk , A. Protopopov Ashort History of Soviet Society Progress Publishers. Moscow P.P. 300-301.

٥٠. د. عبد الحميد البطريق - المصدر السابق ص ٢٣٩- ٢٤١.

٥١. د. جاد طه - ألمانيا إلى أين المصير - المصدر السابق ص ٩٠.

٥٢. د. جاد طه - دراسات في القضايا السياسية والاقتصادية المعاصرة - جامعة عين شمس ٢٠٠٠ ص ٢٧ - ص ٣٧ ولمزيد من التفصيلات انظر أيضا دز جاد طه - العلاقات الدولية - مكتبة سعيد رأفت ١٩٨٤ ص ٢٥٢ - ٢٨٧. وأنظر أيضا د. عبد العزيز سليمان نوار - المصدر السابق ص ٣٨٤ - ٤٠٢.

٥٣. د. عبد العزيز سليمان نوار - المصدر السابق ص ٤٢٣.

٥٤. د. جاد طه - ألمانيا إلى أين المصير - المصدر السابق ص ١٠٤ - ١٠٨.

٥٥. د. عبد الحميد البطريق - المصدر السابق ص ٣٨٥ - ٣٨٨.

٥٦. لمزيد من التفصيلات: Y. Playokov, V. Lelchuk, A Protopov op. cit p.p. 360-376.

٥٧. د. جاد طه - دراسات في تاريخ آسيا الحديث - جامعة عين شمس ١٩٩٩ ص ١٩٦.

٥٨. د. جاد طه - ألمانيا إلى أين المصير - المصدر السابق ص ١١٣ - ١١٤.

٥٩. د. عبد الحميد البطريق - المصدر السابق ص ٤٤٩ - ٤٥١.

٦٠. لمزيد من التفصيلات - أنظر د. جاد طه - دراسات في تاريخ آسيا الحديث - المصدر السابق ص ٢٠٠ - ٢٠٤.

٦١. د. عبد الحميد البطريق - المصدر السابق ص ٤٥٢ - ٤٥٨.

٦٢. المصدر السابق ص ٤٦٩ - ٤٧٤.

٦٣. لمزيد من التفصيلات انظر: Dr. Kim han Gil - Modern History of Korea . Foreign Languages Publishing House - Pyongyang - Korea 1979 p.p. 287-352.

٦٤. د. جاد طه - ثورة ٢٣ يوليو بين النظرية والتطبيق - الماسابق ص ٣٠ - ٣٤.

٦٥. د. جاد طه - ألمانيا إلى أين المصير - المصدر السابق ص ١١٨ - ١١٩.

٦٦. Edmond Robin - Soviet Foreign Policy 1962-1973. London Oxford University Press 1975 p.1

أنظر د. السيد أمين شلبي - الوفاق الأمريكي السوفييتي ١٩٦٣ - ١٩٧٦ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨١ ص ١٧.

٦٧. Robert Kennedy - Thirteen days, Amemoire of the Cuban Missiles Gisis W.W. Uorth and Comp. New York 1969 p. 24.

انظر د. السيد أمين شلبي - المصدر السابق ص ١٨.

٦٨. د. السيد أمين شلبي - المصدر السابق ص ٢٧.

٦٩. David Floyed - Mao against Kruschv - Allmail Press 1964 P.P. 3-5.

أنظر د. السيد أمين شلبي - المصدر السابق ص ١٠٨.

٧٠. د. السيد أمين شلبي المصدر السابق ص ١٠٩-١٢٠.

٧١. Robester Goldwin - Readings in Russian Foreign Policy, Oxford University Press. 1959 p. 589.

أنظر د. السيد أمين شلبي - المصدر السابق ص ١٢٤.

٧٢. د. السيد أمين شلبي المصدر السابق ص ١٢٥.

٧٣. لمزيد من التفصيلات أنظر ألبانيا رأس جسر للصين في أوروبا: - Albania Chinas Beach head to Europe

تأليف هاري هام Hurry Humm ترجمة إلى الإنجليزية فيكتور أندرسون Victor Anderson الناشر Fredrick A. Praeger New York وترجمة إلى العربية د. جاد طه - نشر داخلي - الهيئة العامة للاستعلامات - القاهرة ١٩٦٤.

٧٤. Remington Robin - The Warsaw Pact - The mit Press, Cambridge London 1971. P. 71.

أنظر د. السيد أمين شلبي - المصدر السابق ص ١٢٧.

٧٥. Brown Seymon - New Forces In World Politics - Breckings Institution 1974 p. 58.

أنظر د. السيد أمين شلبي - المصدر السابق ص ١٢٧.

٧٦. د. السيد أمين شلبي - المصدر السابق ص ١٣٢ - ١٣٣.

٧٧. Robert James - The Gzechoslovak Crisis 1968. Institute for the study of International Organization, University of, Sussex. London 1969.

أنظر د. السيد أمين شلبي - المصدر السابق ص ١٣٧.

٧٨. د. السيد أمين شلبي - المصدر السابق ص ١٤٠.

٧٩. ميخائيل جورباتشوف - البيريسترويكا - مقدمة بقلم د. حازم الببلاوي - ط٤ - دار الشروق ١٩٩٠ ص ٤.

٨٠. ميخائيل جورباتشوف - البيريسترويكا - تفكير جديد لبلادنا وللعالم - ترجمة حمد عبد الجواد - مراجعة محمد المعلم - ط٤ - دار الشروق ١٩٨٩ ص ١٣ - ٢٣.

٨١. ميخائيل جورباتشوف - البيريسترويكا - مقدمة بقلم د. حازم الببلاوي - المصدر السابق ص ٩ - ٢٠. ولمزيد من التفصيلات انظر

Http.// www. refrel. org/ nca/features/1999/10/FRU.99100.6130825.htm. USSR, The Year 1989, Foreshadowed the fall

٨٢. دكتور محمد عبد القادر أحمد - المسلمون في أفغانستان - النهضة المصرية - ١٩٨٤ ص ١٦ - ٢٣.

٨٣. http.// www. afghanweb. History articles/ussr. htm. The Role of Afghanistan in the fall of USSR.

٨٤. http.//www. mtholyoke . edu/ mvcar mac soviet htm1. Adecade of violence - The Soviet- Afghan war.

٨٥. http. // www. afghan- web/ History articles / ussr. htm1 The role of Afghanistan in the Fall of USSR.

٨٦. http.// www. lodg minsk . by cegi N.2/ afg/ waraf. htm. United state Army. Foreign Military Studies Office fort Leavenworth Kansas USA The Soviet War in Afghanistan By General Mohammad Yahya Nawroz Army of Afghhanistan & . LTC Lester, W. Grau U.S. Army.

٨٧. د. محمد عبد القادر أحمد - المصدر السابق ص ٨٦.

٨٨. http:// www. afghan - web / History Articles / USSR html The Role of Afghhanistan in the Fall of USSR.

٨٩. http.:// www bdg minsk. by cegi/ N.2 Afg. htm. United States Army. Foreign military Studies Office. fort Leavenworth Kansas U.S.A. The Soviet War in Afghanistan History and Harbinger of Future war by General Mohammad Yahya Nawroz Army of Afghanistan & L.T.C. Lester, W. Grann U.S. Army.

٩٠. http.:// www. afghann- web/ history articles / ussr html. The Role of Afghanistan in the Fall of USSR.

٩١. http.// www. Cgsc mil mirelcv english/ nordec 97/ grau. htm. The Soviet Afghan War Experience by Lieuutenant colonel Lester, W Gran, U.S. Army & Major William A. Jorgenson U.S. Army.

٩٢. http.:// www ofghan - web/ history articles/ USSR html The Role of Afghanistan in the Fall of USSR.

٩٣. الأهرام القاهرية ع (٤٢٢٥٧) ١٧ أغسطس ٢٠٠٢ .

٩٤. http// www afghan - web history articles // ussr html The Role of Afghanistan in the Fall of USSR.

٩٥. رسلان حسبو لاتوف - المواجهة الدامية - شهادة للتاريخ عن انهيار الاتحاد السوفييتي - ترجمة أبو بكر يوسف - ط٤ دار الشروق - توزيع مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٩٩٠. ص ٢٢- ٢٦.

٩٦. إبراهيم نافع - د. عبد المنعم سعيد - د. حسن أبو طالب - رضا هلال - خالد داود - ماذا يجرى في شرق أوروبا ؟ مركز الأهرام للترجمة والنشر ط١ ٢٠٠١ ص ١٢ - ١٦.